حمير قد أكلت رأسي

محمد الحاج مستو

حمير قد أكلت رأسي

تأليف: محمد الحاج مستو

الطبعة الأولى، 2026

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

لا يجوز نسخ أي جزءٍ من هذا الكتاب أو نقله بأي وسيلة دون إذنٍ خطي من المؤلف

إلى كل من حمل عن غيره،
ولم يذكره أحد

حملت الحميرُ أثقالنا خمسة آلاف عام،
ثم جعلنا اسمها شتيمة

حمير قد أكلت رأسي



هذه حكايات الحمير
أما الحماقات، فكلها لنا

قبل أن تقرأ

كانت جدتي تحدثني كثيرًا عن الحمير، تحكي لي حكاياتها واحدةً بعد واحدة، بعضها مما عرفته في حياتها وبعضها مما سمعته ممن سبقوها، وكنت أسمع وأضحك، ثم أبقى بعد كل حكاية أفكر فيها طويلًا حتى أخرج منها بحكمةٍ صغيرة أو عبرةٍ أحفظها وأحملها معي

ثم كبرتُ وبقيت العادة معي، فصرت أجد الحمار في كل كتاب أفتحه، في قبور الفراعنة وفي معسكرات الغزاة وفي نوادر جحا وفي أمثال الصينيين وفي روايات كتّاب لم يخطر لي يومًا أنهم يحبون الحمير، وكنت أفعل بكل حكاية ما علّمتني إياه جدتي، أقرؤها ثم أبحث فيها عن العبرة، ومن هذه العادة القديمة خرج هذا الكتاب

والحكايات هنا حقيقية أو قديمة أو الاثنان معًا، بعضها من التاريخ وبعضها من الأدب وبعضها من أخبار الصحف، والحمار فيها يفعل ما تفعله الحمير عادةً، يحمل ويصبر وينهق، أما البشر من حوله فيفعلون أشياء أخرى كثيرة، وهي التي تستحق أن نضحك منها قليلًا ثم نفكر فيها قليلًا

فاقرأ الكتاب على مهل، حكايةً أو حكايتين في المساء، كما يأخذ الحمار حصته من الشعير، واترك الباقي للغد

الحمير العشرة في أبيدوس

قبل نحو سبعة آلاف عام، في شرق أفريقيا، اقترب إنسانٌ من حمارٍ بري فأطعمه بدل أن يصطاده، ثم وضع على ظهره حملًا خفيفًا ومشى بجانبه، وهكذا بدأ تدجين الحمار كما تقول الدراسات الجينية الحديثة، ومنذ ذلك اليوم لم يتوقف الحمار عن الحمل

وفي عام 2008 أعلن علماء الآثار عن كشف في أبيدوس بصعيد مصر، فقد وجدوا بجوار مجمّعٍ جنائزي لأحد ملوك الأسرة الأولى، قبل نحو خمسة آلاف عام، عشرة هياكل لحمير مدفونة بعناية في قبورٍ من الطوب، كأنها جزءٌ من حاشية الملك ورجال بلاطه

ولما درس العلماء عظامها وجدوا على عمودها الفقري آثار الحمل الثقيل سنوات طويلة، فعرفوا أنها كانت حميرًا عاملة نقلت الحجارة والحبوب والماء، وحملتْ التجارة عبر الصحراء قبل أن يعرف المصريون الجمل بقرون، ومع ذلك دُفنت بجوار الملك لترافقه في رحلته إلى العالم الآخر كما كان المصريون يعتقدون، وكأن ذلك الملك كان يعرف جيدًا من الذي حمل مملكته على ظهره

أما المدن الحديثة فلها حميرها التي لا يدفنها أحدٌ بجوار أحد، عامل البناء الذي يسقط من الطابق العشرين فلا يُذكر اسمه يوم افتتاح البرج، وعامل النظافة الذي يخرج قبل الفجر، والمزارع الموسمي الذي يتنقل من حقلٍ إلى حقل ومعه خيمته وأطفاله ليطعم مدنًا لا تعرف اسمه، وهؤلاء جميعًا لا ينتبه إليهم الناس إلا حين يتوقفون عن العمل، فتتراكم القمامة في الشوارع ويغلو الخبز في الأسواق

لقد حفظت عظام أبيدوس آثار الحمل خمسة آلاف عام، وأقلّ ما نستطيع أن نفعله لمن يحملوننا اليوم أن نحفظ أسماءهم ونشكرهم ونحن وهم أحياء

من الذي حمل حياتك على ظهره دون أن تعرف اسمه، وهل ستعرفه قبل أن يرحل؟

حمار قويتشو

كان إقليم قويتشو الجبلي في جنوب الصين خاليًا من الحمير، حتى جاء رجلٌ يحب الغرائب فحمل حمارًا في قاربٍ إلى هناك، ولما وصل لم يجد له عملًا يصلح له، فأطلقه في سفح الجبل وتركه

ورآه نمرٌ من بين الأشجار، فرأى حيوانًا ضخمًا طويل الأذنين لم يرَ مثله في حياته، فظنه كائنًا عجيبًا له قوةٌ لا يعرفها، واختبأ يراقبه من بعيد

ومرت الأيام والنمر يقترب خطوةً ويبتعد خطوتين، حتى نهق الحمار ذات يوم ففرّ النمر مذعورًا، ثم عاد بعد حين، ومع الوقت اعتاد الصوت وصار يحوم حول الحمار ويلمسه بطرف مخلبه ويتحرش به، فغضب الحمار ورفسه، ففرح النمر فرحًا عظيمًا وقال في نفسه: هذا كل ما يقدر عليه! ثم وثب عليه وقطع عنقه وأكله

كتب هذه الحكاية الأديب الصيني ليو تسونغ يوان في القرن التاسع الميلادي، وصارت مثلًا يقوله الصينيون إلى اليوم: «انتهت حيل حمار قويتشو»، ويقولونه لكل من له مظهر مهيب وقدرةٌ قليلة، حين يأتي يوم الاختبار فينكشف أمره أمام الناس

ومن يقرأ الحكاية بتمهّل يرى الحمار بريئًا من كل ما جرى، فالرجل هو الذي حمله إلى أرضٍ غريبة وتركه بلا عمل، والنمر هو الذي نسج له هيبةً من خياله، ثم دفع الحمار وحده الثمن

وهذا ما يحدث في بلادٍ كثيرة حين يوضع رجلٌ في منصب لا يعرف عنه شيئًا لمجرد أن له قريبًا نافذًا أوصله إليه، فيهابه الناس أولًا الأمر لفخامة

الكرسي، ثم تأتي أول أزمة فيرفس رفسته الوحيدة ويفهم الجميع حقيقته، والخاسر الأكبر بعد ذلك هو البلد كله، بينما ينتظر النمر في الغابة

لو جاء يوم اختبارك الآن، فماذا سيبقى منك حين تسقط الهيبة التي نسجها الناس حولك؟

حمارٌ فوق السطح

أراد نصر الدين خوجة، الذي نعرفه باسم جحا، أن يُصلح سقف بيته القديمٍ، فصعد إلى السطح وأصعد حماره معه ليحمل له الطين والحجارة، وعملا معًا طوال النهار

ولما انتهى العمل وحلّ المساء شدّ جحا الحبل ليُنزل الحمار، فلم يتحركٍ، وجرّه نحو الدرج فغرس حوافره في الأرض، وحاول معه باللين مرةً وبالعصا مرة، والحمار يرفض، وكأن المكان العالي قد أعجبه ولا يريد أن يتركه

وجلس جحا ينتظر ساعةً ثم ساعتين، والحمار يضرب السطح بحوافره ويتقلبٍ عليه، والسقف القديم يئن تحته، فلما دفعه جحا نحو الدرج رفسه رفسة أسقطته أرضًا، وفي اللحظة التالية انهار السقف كله وسقط الحمار في وسط البيت مع الطين والخشب

فنهض جحا من الغبار ونظر إلى بيته المهدوم، وقال كلمته التي يرددها الأتراك منذ قرون: الحمار لا يرفع إلى مكان عالٍ، فإن صعد لم يرضَ أن ينزل، وإن بقي هدم المكان وأهلك نفسه وآذىً من رفعه

ويقول الأتراك هذا المثل حين يُرقّى من لا يستحق، فيصعد الرجل إلى منصبٍ أكبر منه ويعجبه الهواء في الأعلى، ثم تبدأ الحوافر، قرارات عشوائيةٍ وصراخٍ في الممرات وأقارب يُعيّنون واحدًا بعد واحد، ويحاول من رفعه أن ينزله فيجد أن الحمار صار يحرس السلّم

لقد تعلّم جحا الدرس بسقف مهدوم، ومن يملك أن يرفع أحدًا إلى سطحه يستطيع أن يتعلمه بثمنٍ أقلٍ إن فكّر قبل أن يرفع

هل أنت في المكان الذي يناسبك، أم في المكان الذي أعجبك هواؤه؟

الفلاح الذي أكل حماره سنبلة

قبل نحو أربعة آلاف سنة خرج فلاحٌ فقير اسمه خون أنوب من واحته في الصحراء الغربية بمصر، وقد حمل حميره بالملح والجلود والأعشاب، وودّع زوجته وأطفاله، ومضى إلى المدينة ليبادل بضاعته بالقمح الذي تحتاجه أسرته

وكان في الطريق رجلٌ اسمه نمتي نخت، موظفٌ صغير عند كبير الأمناء، طمعه أكبر من وظيفته، فلما رأى الحمير المحمّلة اشتهاها، وفرِش ثوبًا من الكتان على الطريق الضيق الذي يمر بين النهر وحقله، حتى لم يبق للفلاح ممرٌّ إلا فوق الثوب أو في الماء أو بين سنابل الشعير، ثم قال له: إياك أن تدوس ثوبي!

فمال الفلاح بحميره نحو الحقل، ومدّ أحد الحمير رأسه فأكل حزمةً صغيرةً من الشعير، وهنا صاح نمتي نخت: حمارك أكل زرعي، وسآخذه عقوبة لك! وأخذ الحمير كلها، وضرب الفلاح بعصا من الطرفاء

وتقول البردية التي حفظت الحكاية إن خون أنوب بكى عشرة أيام عند باب ظالمه، ثم ذهب إلى كبير الأمناء رينسي ووقف أمامه وتكلم بلسان لم يسمع القصر مثله، فقال له إنه ميزان العدل، وان الميزان إذا مال فسد كل شيء، فأعجب رينسي بكلامه وحمل الخبر إلى الملك، فقال الملك: لا تجبه، ودعه يتكلم، واكتبوا كل ما يقول، وأطعموا أسرته سرًّا

ووقف الفلاح تسع مرات يرفع شكواه، والقصر يستمع ويدوّن ويتمتع ببلاغته وحميره ما زالت عند اللص، حتى يئس في المرة الأخيرة وقال كلامًا قاسيًا فضُرب، وهمّ بالرحيل، وعندها فقط استدعوه وأعادوا إليه حميره وأعطوه أملاك نمتي نخت كلها

إنها نهايةٌ سعيدة، غير أن في الحلق سؤالًا مرًّا يبقى: لماذا احتاج رجلٌ مظلومٍ إلى تسع خطب ليسترد حماره؟ ولماذا وجد الكبار في وجعه أدبًا جميلًا قبل أن يروا فيه قضيةً تستحق العدل؟

وفي أدراج المكاتب اليوم شكاوى كثيرة تشبه شكوى خون أنوب، تُختم وتُحال ويعجب بعضها الموظفين، والحمار باقٍ عند صاحب الثوب المفروش

كم مرةً يجب أن يُرفع المظلوم صوته حتى يُسمع، وهل كنتَ يومًا من السامعين المستمتعين؟

السمسار الذي باع لجحا حماره

كبر حمار جحا وضعف، فأخذه إلى سوق الدواب ليبيعه، وسلّمه إلى سمسارٍ يعرض الدواب على المشترين، وجلس قريبًا ينتظر ما يكون

فوقف السمسار بجانب الحمار ورفع صوته: يا أهل الذوق، انظروا إلى هذا الحمار! قوائمه كأعمدة الرخام، وظهره يحمل جبلًا، وصبره لا ينفد، يمشي في الطين كأنه على الحرير، ويصعد الجبل كأنه ينزل الوادي، لا يمرض ولا يتعب ولا يرفس، فاشتروه قبل أن يفوتكم!

وبدأ الناس يتجمعون ويرفعون الثمن واحدًا بعد واحد، وجحا يسمع وعيناه تتسعان، حتى بلغ الثمن حدًّا كبيرًا، فقام جحا ورفع يده وزاد على الجميع واشترى حماره

فقال له السمسار مذهولًا: يا جحا، هذا حمارك! فقال جحا: وكيف لي أن أعرف؟ لقد عشتُ معه عشر سنين ولم أكن أعلم أنه يملك كل هذه الصفات!

نضحك من جحا، ثم نتذكر الهاتف الذي اشتريناه العام الماضي وهو يشبه هاتفنا القديم في كل شيء إلا الإعلان، والكريم الذي وعدنا بالعودة إلى العشرين، والشقة الصغيرة التي سماها المعلن «فرصة العمر»

وفي السياسة سماسرة أمهر من سمسار جحا، يأخذون الوعد القديم والوجه الذي جرّبه الناس من قبل، ويعيدون عرضه بلافتات جديدة، فيشتريه الناس مرةً ثانية بثمنٍ أغلى، ثم يعودون به إلى البيت فيعرفونه

والسمسار يتقاضى أجره على الكلام، أما الحمار فهو هو، كما كان منذ عشر سنين

هل تعرف نفسك حقًّا، أم تنتظر أن يصفك أحدٌ لتصدّق ما فيك؟

ظلّ الحمار

وقف ديموستينيس، أشهر خطباء أثينا، يتكلم أمام أهل المدينة في أمرٍ يتعلق بأمنها وسلامتها، وكان الناس يتثاءبون ويتهامسون ويقاطعونه، فسكتَ فجأة وقال: دعوني أحكي لكم حكايةً قصيرة، فسكتوا جميعًا وأصغوا إليه

فقال: استأجر شابٌّ حمارًا ليسافر عليه من أثينا إلى ميغارا، ولما اشتد الحر في منتصف النهار ولم يجد في الطريق شجرة، نزل وجلس في ظل الحمار، فاعترض صاحب الحمار وقال: أنت استأجرت الحمار ولم تستأجر ظله، والظل لي، وقال الشاب: من استأجر الحمار استأجر ظله معه، واشتد الخلاف بينهما حتى ذهبا إلى المحكمة، ثم نزل ديموستينيس عن المنبر

فصاح الناس: أكمل! ماذا حكمت المحكمة؟ ولمن الظل؟ فعاد إليهم وقال: يا أهل أثينا، تريدون أن تسمعوا عن ظل حمار، وحين أكلمكم في أمور حياتكم تتثاءبون!

رُويت هذه الحكاية في «سير الخطباء العشرة» المنسوب إلى بلوتارخ، وكتب عنها السويسري فريدريش دورنمات في القرن العشرين مسرحيةً إذاعية جعل فيها النزاع على الظل يقسم المدينة حزبين ثم يشعل فيها حربًا حتى تحترق

ولو عاش ديموستينيس اليوم لما احتاج إلى اختراع الحكاية، ويكفيه أن يفتح هاتفه، ففي كل أسبوعٍ ظلّ حمارٍ جديد يتقاتل عليه الناس، صورةٌ أو تصريح لاعب أو شجار بين مشهورين، وفي الأسبوع نفسه تمرّ قرارات تمسّ الخبز والدواء والمدارس دون أن يقرأها أحد

فاحسب في أسبوعك الساعات التي أخذتها منك ظلال الحمير، والساعات التي أعطيتها لما يجري في حياتك فعلًا، فقد يكون الحمار نفسه قد سار بعيدًا وأنت ما زلت تتشاجر على ظله

على أي ظلٍّ أنفقتَ عمرك، وإلى أين مضى الحمار وأنت تتشاجر؟

العالِم الذي اشترى حمارًا

في كتاب «وصايا آل يان»، الذي كتبه الصيني يان تشي توي في القرن السادس الميلادي ليؤدب به أبناءه، حكايةٌ قصيرة عن رجلٍ يحمل لقب «العالِم»، كان يحفظ الكتب القديمة ويتباهى بها في كل مجلس

ذهب هذا العالِم يومًا إلى السوق ليشتري حمارًا، فاتفق مع البائع على الثمن، ثم قال: لا بدٍ من عقدٍ مكتوب، وأخرج الورق والفرشاة وبدأ يكتب، فكتب صفحةً ثم صفحتين ثم ثلاثًا، يستشهد بالحكماء ويزيّن الكلام ويطيل في المقدمات، والبائع ينتظر والناس يتجمعون والشمس تميل نحو الغروب

وأخيرًا سأله البائع: كم بقي يا سيدي؟ فرفع العالِم الأوراق بفخر وقرأ ما كتب على الناس، فإذا هي ثلاث صفحات لم ترد فيها كلمة «حمار» مرةً واحدة، ومن يومها يقول الصينيون: «العالِم يشتري حمارًا، ثلاث ورقات ولا حمار»، لكل كلامٍ طويلٍ لا يصل إلى غايته

ولهذا العالِم أحفادٌ كثيرون في المكاتب الحكومية، استمارةٌ من عشر صفحات لطلب ورقةٍ واحدة، وتقريرٌ من مئة صفحة لا يجيب عن السؤال الذي كُتب لأجله، واجتماعٌ من ثلاث ساعات يخرج منه الجميع متعبين والقرار لم يُذكر، وفي بعض الأماكن صار طول الكلام علامةً على الجدية، فالموظف الذي يكتب كثيرًا يبدو مجتهدًا، والمسؤول الذي يتكلم طويلًا يبدو عميقًا

والبائع في السوق ما زال واقفًا، يريد أن يعرف شيئًا واحدًا فقط: هل اشتريت الحمار أم لا؟

كم من كلامك وصل إلى ما أردت، وكم منه كان ثلاث ورقاتٍ بلا حمار؟

الملح والإسفنج

تروي خرافات إيسوب أن تاجرًا كان له حمارٌ يحمل الملح من الشاطئ إلى السوق، وفي طريقهما نهرٌ صغير يعبرانه كل يوم، فانزلق الحمار يومًا في النهر، ولما قام وجد حمله قد خفّ كثيرًا لأن الملح ذاب في الماء

ففرح الحمار بهذا الاكتشاف، وفي اليوم التالي تعمّد أن يسقط في النهر فقام خفيفًا، وفي اليوم الثالث سقط أيضًا، حتى انتبه التاجر إلى الحيلة، فوضع على ظهره في اليوم الرابع أكياسًا من الإسفنج، ووصل الحمار إلى النهر فسقط كعادته وانتظر أن يخف حمله، فشرب الإسفنج الماء حتى امتلأ، وقام الحمار بحملٍ أثقل من كل ما حمل في حياته، وأكمل الطريق وهو يترنح

وتُقرأ هذه الخرافة عادةً درسًا للكسالى، فالحيلة التي تنجح مرتين تُكشف في الثالثة، والموظف الذي يمرض كل يوم أحد يعرف مديره موعد مرضه

غير أن للنهر ضفةً أخرى، فهذا الحمار حمل الملح الثقيل أيامًا طويلة دون أن يشكو، ولما وجد ما يخفف عنه فكّر التاجر في العقاب فورًا، ولم يخطر له أن يسأل نفسه: هل الحمل أثقل مما ينبغي؟

وكثيرٌ من المؤسسات تفعل ما فعله التاجر، فتعاقب الطالب الذي يغش ولا تسأل عن امتحان يقيس الحفظ وحده، وتخصم من راتب العاملٍ الذي يتمارضٍ ولا تسألً عن الإرهاق الذي دفعه إلى ذلك، فتكسب جولة وتصنع حيلة جديدة لم تعرفها بعد

والأسلم للطرفين أن يقول الحمار، إن استطاع الكلام: هذا كثير عليّ، وأن يسمعه التاجر

هل تسأل عن ثقل ما تحمّله لغيرك قبل أن تعاقبه على حيلته؟

المكتبة التي تمشي على أربع

في قرية لا غلوريا شمال كولومبيا يعيش معلّمٌ اسمه لويس سوريانو، كان يرى أطفال القرى البعيدة في الجبال يكبرون دون أن يمسكوا كتابًا، لأن الطرق وعرة والمدارس فقيرة والمكتبات في مدنٍ لا يصلون إليها

فقرر أن يأخذ الكتب إليهم بنفسه، واشترى حمارين سمّاهما «ألفا» و«بيتو»، أي «أبجد»، وصنع لهما سلالًا ملأها بالكتب، ومنذ أواخر التسعينيات صار يخرج كل نهاية أسبوع إلى القرى البعيدة، فيتجمع الأطفال حوله حين يصل، ويقرأ لهم بصوتٍ عالٍ ويعيرهم الكتب، ثم يعود بعد أسبوعين ليأخذها ويعطيهم غيرها، وسمّى مشروعه «المكتبة الحمار»

وقد سقط مرةً عن الحمار فكُسرت ساقه، وهاجمه لصوصٌ مرة وربطوه إلى شجرة، فلما لم يجدوا معه مالًا أخذوا كتابًا ومضوا، ومع ذلك استمر سنواتٍ طويلة حتى عرفه العالم وتبرع له الناس بآلاف الكتب

وفي إثيوبيا فعل رجلٌ اسمه يوهانس جبريجورجيس شيئًا قريبًا من ذلك، فقد كان أمين مكتبة في الولايات المتحدة، ثم عاد إلى بلده وأسس جمعيةً لنشر القراءة بين الأطفال، ولما رأى أن السياراتٍ لا تصل إلى قرى الريف أطلق «مكتبات الحمير المتنقلة»، وهي عرباتٌ صغيرة مليئة بالكتب يجرها حمارٌ من قريةٍ إلى قرية

رجلان وبضعة حمير فعلوا ما تقول عنه الوزارات كل عام إن ميزانيته لا تكفي، وحين يُسأل المسؤولون عن الأطفال الذين لا تصلهم المدارس يتحدثون عن الطرق الصعبة والأسر التي لا تتعاون، أما لويس سوريانو فقد بدأ بلا طريقٍ ممهد ولا أسرٍ متعاونة ولا ميزانية، بدأ بحمارين ويوم سبت

ما الذي يمنعك حقًّا من أن تبدأ، الطريق أم أنت؟

اذبحوا الحمار بعد الطحين

في القرى الصينية القديمة كان الحمار يُربط إلى ذراع الرحى، وتُعصب عيناه بقطعة قماش حتى لا يدوخ ولا يرى أنه يدور في المكان نفسه، ثم يُترك يمشي حول الحجرين من الفجر حتى المساء

ومن هذا المشهد خرج مثلٌ صيني قاسٍ يقول: «انتهى الطحين، فاذبحوا الحمار»، ويُحكى في تفسيره أن طحانًا كان عنده حمارٌ يدور به سنوات طويلة، فلما كبر الحمار طحن عليه آخر كيسٍ من القمح، ثم فكّ عنه الحبلَ وقاده إلى خلف الطاحونة وذبحه وباع لحمه، واشترى بثمنه حمارًا شابًّا

ويقول الصينيون هذا المثل لمن ينتفع بإنسان ثم يتخلص منه حين تنتهي حاجته إليه، ولكل لغةٍ مثلٌ يشبهه، لأن في كل سوقٍ طحانًا، فالموظف الذي أُعطي شركته عشرين سنة يُستدعى في صباحٍ عادي إلى مكتبٍ صغير ويُقال له بلطف إن الهيكلة الجديدة لا تحتاج إليه، والعامل الذي بنى المدينة يُعاد إلى بلده حين ينتهي البناء، والصديق الذي وقف معك في الضيق يصير عبئًا عليك حين تتسع أيامك

والطحان في المثل يرى نفسه رجلًا عاقلًا يحسب جيدًا، فالحمار الكبير يأكل ولا ينتج، والحمار الشاب ينتج أكثر، والحساب صحيح لكنه ظالمٌ تمامًا، لأن الدفاتر لا تتذكر السنوات التي دار فيها الحمار معصوب العينين، ولا الخبز الذي أكله أطفال الطحان من تعبه

وللسكين أثرٌ آخر لا يدخل في الحساب، فالحمار الشاب رأى ما جرى لمن قبله، وسيعمل أقل ويثق أقل ويحفظ قوته لنفسه، وهكذا يربح الطحان حمارًا جديدًا ويخسر الطاحونة كلها على مهل

حين ينتهي طحينك، ماذا ستكون في عيون من انتفعوا بك،
وماذا ستكون في عين نفسك؟

الحمير التي هزمت الفرسان

في القرن السادس قبل الميلاد عبر داريوس ملك الفرس نهر الدانوب بجيشٍ ضخم يريد أن يُخضع السكيثيين، وهم شعبٌ من الفرسان الرحّل يعيشون في السهوب الممتدة شمال البحر الأسود، وكانوا أمهر فرسان زمانهم، يكبر الطفل عندهم على ظهر الحصان، وكانت خيولهم تهاجم معسكرات الفرس فتقتل وتختفي في السهوب

غير أن شيئًا غريبًا كان يحدث في كل هجوم، فقد روى المؤرخ اليوناني هيرودوت أن بلاد السكيثيين شديدة البرد فلم تكن فيها حمير ولا بغال، وأن الفرس جاؤوا بحميرهم معهم، فكلما اقترب الفرسان من المعسكر نهقت الحمير، وخيول السكيثيين لم تسمع هذا الصوت في حياتها، فكانت ترتاع وتنتصب آذانها وتدور على أعقابها وتفرّ بفرسانها

ثم ضاق الأمر بداريوس فقرر الانسحاب سرًّا، ويقول هيرودوت إنه ربط الحمير كلها في المعسكر وترك معها الجنود المرضى والضعفاء، وأوقد النيران، وانسحب في الليل بجيشه السليم، فظلت الحمير تنهق حتى الصباح، وظن السكيثيون أن الفرس ما زالوا هناك، وحين انكشفت الحيلة كان داريوس قد ابتعد

لقد ارتبك أمهر فرسان العالم أمام صوتٍ لم يسمعوه من قبل، وكثيرًا ما يأتي الخطر من حيث لا يتوقعه الأقوياء، مِن أضعف ما في معسكر خصمهم، أما الحمير نفسها فقد خدمت مرتين، مرةً في المعارك ومرةً في الهزيمة، حين رُبطت لتنهق طوال الليل وتُركت مع المرضى لمصيرهم

ولهذا المشهد صورٌ حديثة كثيرة، فالعمال يُسرَّحون في أول الأزمة، والجنود البسطاء يُتركون في الخطوط الأمامية، والموظفون الصغار يتحملون أخطاء

من فوقهم، يبقون في المعسكر ينهقون فيظن العالم أن كل شيء على ما يرام، بينما يكون الكبار قد عبروا النهر

لو تُركتَ في المعسكر تنهق ليعبر غيرك النهر، فهل كنتَ ستعرف؟

أتصدّق الحمار وتكذّبني؟

جاء جار بجا يطلب منه حماره ليذهب به إلى السوق، وكان بجا يكره أن يعير حماره، فقال له: آسف يا جاري، الحمار ليس هنا، فقد أعرته لأخي أمسٍ، وفي تلك اللحظة بالذات نهق الحمار في الإسطبل خلف البيت نهيقًا طويلًا سمعه الحي كله

فنظر الجار إلى بجا وقال: كيف تقول إنه ليس هنا وأنا أسمعه؟ فاحمرّ وجه بجا وقال: يا عجبًا! أتصدّق الحمار وتكذّبني أنا، وأنا جارك منذ عشرين سنة؟

نضحك من بجا لأنه يحاول أن يغلب الحقيقة بالعِشرة والمعرفة القديمة، والحقيقة تنهق من خلف الجدار، وهذا الحوار نفسه يتكرر اليوم بأصوات أعلى، فتنتشر صور الفساد فيقول المسؤول إنها مفبركة، وتُنشر أرقام الفقر فيقال إنها مؤامرة، وتظهر الوثائق فيُسأل الناس بنبرة العتاب: أتصدّقون الأوراق وتكذّبوننا، ونحن نخدمكم منذ عشرين سنة؟

والمدهش أن كثيرين يقتنعون، لأن الكذبة إذا قيلت بثقة وكُررت كثيرًا، وجاءت من صاحب سلطة أو صاحب فضل، تغلب الحقيقة عند من يخاف أن يصدق أذنيه

ولكلٍّ منا إسطبلٌ صغير ينهق فيه حمار، خطأٌ نعرفه ونقسم أنه ليس هنا، أو عادةٌ ننكرها أمام من يحبوننا، والحمار لا يملّ، ينهق كل ليلة، ولا يسكت إلا حين نفتح الباب ونقول بصدق: نعم، هو هنا

ما الحمار الذي ينهق في إسطبلك الآن، ولماذا تقسم أنه ليس هنا؟

الحمار الذي حكم على العندليب

كتب الشاعر الروسي إيفان كريلوف، أشهر كتّاب الخرافات في الأدب الروسي، حكاية قصيرة عن حمار رأى عندليبًا على غصن، فقال له: يقولون إنك أعظم مغنٍّ في الغابة، وأريد أن أسمعك بنفسي لأحكم إن كانوا صادقين

فغنّى العندليب بكل ما فيه من فن، وصفّر بآلاف النغمات، ورفع صوته ثم خفضه، ورقّ ثم اشتد، حتى سكتت الغابة كلها تستمع، فهدأت الريح، ووقف راعٍ عابر مبتسمًا، ورقد القطيع ساكنًا، ثم انتهى العندليب وانحنى ينتظر الحكم

فهزّ الحمار رأسه الكبير، ونظر إلى الأرض طويلًا، ثم قال: لا بأس، يمكن الاستماع إليك دون ملل، لكن من المؤسف أنك لم تعرف الديك الذي في مزرعتنا، ولو تعلمتَ منه قليلًا لصار غناؤك أفضل، فطار العندليب بعيدًا ولم يعد

ويقال إن كريلوف كتبها ردًّا على نقاد حكموا على أعماله بجهل، وقد مات النقاد وبقي حمارهم حيًّا في كل لجنة تحكيم تمنح الجائزة لصديق أحد أعضائها، وفي كل مدير يقرأ فكرة جديدة لموظف شاب فينصحه أن يتعلم من زميلٍ لم يأتِ بفكرةٍ منذ عشرين عامًا، وفي كل أبٍ يسمع ابنه يعزف فيقول له: جميل، لكن الطب أنفع

وأوجع ما في الحكاية سطرها الأخير، فقد طار العندليب ولم يعد دون كلمة جدال، وهكذا يفعل الموهوبون حين يحكم عليهم الحمير مرةً بعد مرة، يهاجرون أو يسكتون، وتبقى الغابة للديكة

كم عندليباً أسكتّه بحكمك، وكم مرةً أسكتك حمار؟

الشاعر وحماره والكيس القديم

في الصين، في القرن التاسع الميلادي، عاش شاعرٌ شاب اسمه لي خه، نحيل الجسد كثّ الحاجبين، يعدّه الصينيون من أغربِ شعرائهم وأعمقهم، وكان يخرج كل صباح على حمارٍ هزيل يتبعه خادمٌ صغير يحمل كيسًا قديمًا من الديباج البالي، ويمضي في الطرقات والحقول يتأمل، فإذا خطر له بيتٌ من الشعر كتبه على ورقة ورماه في الكيس

وفي المساء كانت أمه تفرغ الكيس فتجد فيه أوراقًا كثيرة، فتقول بحزن: هذا الولد لن يتوقف حتى يتقيأ قلبه، ثم يجلس هو في الليل ويجمع الأبيات المتفرقة ويصنع منها قصائد، ومات لي خه في السادسة والعشرين من عمره وبقيت قصائده بعده

وفي الشعر الصيني حميرٌ كثيرة، فالشاعر الكبير دو فو قضى سنوات في العاصمة يركب حمارًا ويطرق أبوابِ الوجهاء لعلهم يجدون له وظيفة، وكتب في قصيدة يشكو فيها حاله بيتًا مرًّا معناه: ركبت الحمار ثلاثة عشر عامًا، أعيش ضيفًا على موائد العاصمة، وهكذا صار الحمار في الأدب الصيني رمزًا للشاعر الفقير الذي يمشي على مهل، فيرى ما لا يراه الراكبون على الخيول

والذين ركبوا الخيول في مواكب تلك الأيام لا يذكر أحدٌ أسماءهم اليوم، أما لي خه ودو فو فيُدرّس شعرهما إلى الآن، وهذا عزاءٌ متأخر جدًّا لمن مات فقيرًا

ولمن في قلبه شيءٌ يريد أن يكتبه أو يرسمه، في حكاية لي خه وصفةٌ بسيطة: حمارٌ هزيل، وكيسٌ قديم، وخروجٌ كل صباح، وأوراقٌ صغيرة لا تحتقرها، فالقصيدة تأتي على ظهر الحمار في أغلب الأحيان

ما القصيدة التي في صدرك، وهل تخرج كل صباحٍ لتكتبها أم تنتظر أن تأتيك؟

الحمار الذي لبس جلد النمر

في كتاب «البنجاتنترا» الهندي، وهو الأصل البعيد لكتاب «كليلة ودمنة»، حكايةٌ عن غسّال فقير كان له حمارٌ هزيل أضعفه الجوع حتى كاد يسقط تحت الأحمال، فوجد الغسّال في الغابة جلد نمرٍ ميت وخطرت له حيلة، فصار كل ليلة يُلبس حماره الجلد ويطلقه في حقول القمح، فيراه الحراس من بعيد ويظنّونه نمراً فيهربون إلى بيوتهم، والحمار يأكل حتى يشبع، فسمن الحمار وارتاح صاحبه من ثمن العلف

وفي ليلة من الليالي اختبأ حارسٌ شجاع في طرف الحقل، ولفّ نفسه ببطانيةٍ رمادية، وانحنى يترقب الوحش وقوسه في يده، فرآه الحمار من بعيد وحسبه أتاناً واشتاق إليها، فرفع رأسه ونهق، فعرف الحارس الصوت وخرج من مخبئه وقتله

وتروي حكايات «الجاتاكا» البوذية القصة نفسها عن تاجرٍ ألبس حماره جلد أسد، والخاتمة واحدة، إذ صرخ الفلاحون في وجه الوحش فنسي الحمار أنه أسد ونهق فقتلوه، وفي خرافات إيسوب روايةٌ قريبة عن حمارٍ وجد جلد أسد فلبسه وصار يخيف حيوانات الغابة، حتى لقي ثعلباً فأرادٍ أن يخيفه، ففتح فمه ليزأر فنهق، فقال له الثعلب: لو سكتّ لخفتُك أنا أيضاً

إنها حكايةٌ واحدة سافرت بين الهند واليونان، لكن الرواية الهندية تقول شيئاً تسكت عنه اليونانية، وهو أن صاحب الحمار هو صاحب الفكرة، والحمار هو الذي مات

وهذا ما يحدث حين يُصنع لرجلٍ عادي لقبٌ كبير، وتُعلّق على جداره شهادةٌ لم يتعب فيها، ويوضع في منصبٍ لا يعرفه، ليأكل من خلفه أصحاب المصلحة، فإذا جاء يوم الامتحان ونهق ضرب وحده، وبقي صاحبه يبحث

عن حمارٍ آخر وجلد جديد، وقد تعلّم الفلاحون ما يحتاج إليه كل من يخاف منً الألقاب: اجعل الوحش يتكلم، وستعرف من هو

ما الجلد الذي ألبسك إياه غيرك، ومن سيدفع الثمن حين تنهق؟

القوافل التي حملت البرونز

قرب مدينة قيصري في وسط الأناضول تلٌّ اسمه اليوم «كولتبه»، كان قبل نحو أربعة آلاف عام مدينةً تجارية اسمها كانِش، وفي أطلالها وجد علماء الآثار أكثر من عشرين ألف لوحٍ طيني كتبها تجارٌ آشوريون جاؤوا من مدينة آشور على نهر دجلة

كانت القوافل تخرج من آشور محمّلةً بالقصدير والمنسوجات على ظهور الحمير السوداء، وتسير أسابيع تعبر الأنهار والجبالٍ حتى تصل إلى الأناضول، وهناك تُباع البضائع بالفضة والذهب، وكثيرًا ما تباع الحمير نفسها، ويعود التجار بالمعدن الثمين، والقصدير ضروري لصناعة البرونز، والبرونز كان سلاح ذلك العصر وأدواته، فهذه الحمير حملت على ظهورها صناعة الشرق القديم كله

وفي الألواح يكتب التجار إلى زوجاتهم وشركائهم عن الأسعار والضرائب والديون، وتكتب الزوجات من آشور يسألن متى تعود القافلة، ويشكين غلاء القمح، ويخبرن بما نسجن من ثياب، أما الحمير فلا تظهر في الرسائل إلا أرقامًا، فالحمار الذي مات في الطريق يُقيَّد خسارة، وسائق القافلة يُقيَّد أجرة

ومضت أربعة آلاف عام والدفاتر تكتب بالطريقة نفسها، فسائق الشاحنة وعامل الميناء وعامل التوصيل الذي يركض تحت المطر والعامل الموسمي في الحقل كلهم تكاليف يجب تقليلها، والمدير التنفيذي وحده استثمار يجب مكافأته، ومن عاملٍ الناس أرقامًا سيشطب سطرًا من دفتره يومًا ولن ينتبه أن السطر كان رجلًا

لقد بقيت حمير آشور السوداء أربعة آلاف عام في الألواح بلا أسماء، وربما يكفي أن يتذكر كلٌّ منا اسمًا واحدًا لمن يحمل له شيئًا اليوم

لو كُتبتَ في دفترٍ ما، فهل ستكون اسمًا أم رقمًا؟

الحمار الذي حُكم عليه بالطاعون

كتب الفرنسي لافونتين في القرن السابع عشر خرافةً عنوانها «الحيوانات المصابة بالطاعون»، ويعدّها كثيرٌ من النقاد أعظم خرافاته، وفيها أن الطاعون نزل على الغابة فأصاب الحيوانات كلها وإن نجا بعضها من الموت، ففقد الذئب رغبته في الصيد، وكفّ الثعلب عن الاحتيال، فجمع الأسد الحيوانات وقال لهم: هذه المصيبة عقوبةٌ على ذنوبنا، فليعترف كلٌّ منا بذنوبه، ونقدّم أكثرنا ذنبًا قربانًا لعل البلاء يرتفع

وبدأ الأسد بنفسه فقال: أكلتُ كثيرًا من الخراف وهي لم تؤذني قط، وأكلتُ الراعي أحيانًا، فإن كان لا بد من قربان فأنا مستعد، فقام الثعلب فورًا وقال: يا مولاي، أنت أكرم من أن تكون مذنبًا، فالخراف حيواناتٌ تافهة وأكلك لها شرفٌ لها، أما الراعي فيستحق ما جرى له، فصفق الجميع، ثم اعترف الدب والنمر وسائر الأقوياء، فوجد لهم المتملقون الأعذار، وخرجوا جميعًا قديسين

ثم جاء دور الحمار، فقال بخجل: أذكر أنني مررتُ يومًا بمرعى الرهبان وكنت جائعًا والعشب طريًّا، فأكلتُ منه بقدر لساني، ولم يكن لي فيه حق، فصاح الجميع: هذا هو المذنب! وقام ذئبٌ يفهم شيئًا في القانون فألقى خطبةً تثبت أن هذا الحيوان الأجرب هو سبب البلاء، وأن أكل عشب الآخرين جريمةٌ لا يكفّر عنها إلا الموت، فقتلوا الحمار

وختم لافونتين خرافته ببيت صار من أشهر ما قيل في العدالة: «بحسب ما تكون قويًّا أو بائسًا، تجعلكَ أحكام البلاط أبيض أو أسود»

وبعد ثلاثة قرون ونصف ما زال الأسد يخرج من المحكمة بثغرة إجرائية، وما زال سارق الرغيف يدخل السجن، ورئيس الشركة الذي أفلسها

يأخذ تعويضًا، والعامل الذي تأخر ساعةً يُطرد، وفي كل بلاءٍ عام يبحث الناس عن قربان فيجدونه دائمًا بين الضعفاء، أما الذئب الذي يفهم في القانون فقد صار له اليوم برنامج تلفزيوني

لو اعترف الجميع بذنوبهم الآن، فلِماذا يقع الاختيار دائمًا على الأضعف، وأين كنتَ ستقف أنت؟

الرجل الذي كان حمارًا

اشترى جحا حمارًا من السوق وربطه بحبلٍ طويلٍ، وأمسك طرف الحبل ومشى أمامه نحو البيت دون أن يلتفت، فرآه لصّان واتفقا على حيلة، فتسلل أحدهما من الخلف وفكّ الحبل من رقبة الحمار ووضعه في رقبته هو، وأخذ الثاني الحمار وابتعد به في زقاقٍ جانبي

ووصل جحا إلى باب بيته والتفت ليُدخل الحمار، فوجد في طرف الحبل رجلًا مطأطئ الرأس، فصاح به: من أنت؟ وأين حماري؟ فبكى الرجل وقال: يا سيدي، أنا حمارك، كنتُ ولدًا عاقًّا أغضبتُ أمي يومًا فدعت عليّ، فمُسختُ حمارًا، وظللتُ سنواتٍ أُباع وأُشترى، واليوم حين اشتريتني أنهت بركتك العقوبة فعدتُ إنسانًا

فتأثر جحا ومسح دمعته وقال: اذهب يا بني، وأطع أمك، ولا تغضبها بعد اليوم، وأطلقه، وبعد أيام ذهب جحا إلى السوق ليشتري حمارًا آخر، فرأى حماره القديم معروضًا للبيع، فاقترب منه ووضع فمه على أذنه وهمس: ألم أقل لك أن تطيع أمك؟ يبدو أنك أغضبتها مرةً أخرى!

ويعرف المحتال الماهر أن أقصر طريقٍ إلى جيب الإنسان يمر بقلبه، فتكفيه قصةٌ فيها أمٌّ وتوبةٌ وبركة حتى يصدقها الطيب ويعطي، ويشعر فوق ذلك أنه فعل خيرًا، ولهذه القصص اليوم صناعةٌ كاملة، حملات تبرعٍ لأطفال مرضى لا وجود لهم، وجمعياتٌ ترفع صور الأيتام وتصرف المال على سياراتها، ورسائل على الهاتف تبدأ بدمعة وتنتهي برقم حساب

والضحية الأكبر لهؤلاء هي الطيبة نفسها، لأن من خُدع مرة يغلق قلبه، فيقف المحتاج الحقيقي على الباب ولا يُفتح له، ولعل أجمل ما في جحا أنه

بقي طيبًا حتى وهو في السوق، ولو تعلّم شيئًا من حكايته لالتفت إلى الخلف وهو يمشي بحماره

كيف تبقى طيبًا دون أن تصير مغفلًا، وكيف تحذر دون أن يقسو قلبك؟

الإمبراطور الذي ساق الحمير

في القرن الثاني الميلادي حكم الصين إمبراطورٌ من أسرة هان اسمه ليو هونغ، ويعرفه التاريخ باسم الإمبراطور لينغ، وكانت إمبراطوريته تتداعى في عهده، فالفلاحون جائعون، والخصيان في القصر ينهبون، والثورات تشتعل في الأقاليم، أما الإمبراطور فكان مشغولًا بالحمير

فقد روى «كتاب هان المتأخرة» أنه ربط أربعة حمير بيضاء إلى عربة في حديقة القصر الغربية، وأمسك اللجام بيده، وصار يسوقها بنفسه في الممرات ذهابًا وإيابًا ويضحك من الفرح، فماذا فعل كبار الدولة؟ قلّدوه، فصار الوزراء والأمراء يركبون عربات الحمير ويتباهون بها ويتسابقون في شراء أجملها، حتى قال المؤرخ إن ثمن الحمار في العاصمة ارتفع إلى أن صار يساوي ثمن الحصان

وكان للإمبراطور هوايةٌ أخرى، فقد أنشأ في القصر سوقًا صغيرًا جعل فيه نساء القصر بائعات، ولبس هو ثياب التجار وصار يتجول بين الدكاكين يساوم، وفي الوقت نفسه كان يبيع مناصب الدولة علنًا، لكل منصبٍ سعر، ومن يدفع يصير حاكمًا على إقليم، ثم يعصر الفلاحين ليسترد ما دفع، وبعد سنوات قليلة من موته تمزقت الإمبراطورية ودخلت الصين في حروب الممالكً الثلاث

لقد بقي الحمار في تلك السنة حمارًا والحصان حصانًا، ولم يتغير إلا شيءٌ واحد، هو أن رجلًا في القصر قرر أن يلعب، فصار ثمن الحمار ثمن الحصان، وهكذا تصنع السلطة الموضة، فيلبس المسؤول ساعةً معينة فيشتريها موظفوه، ويحب رياضةً فتبنى لها الملاعب وتُنسى المستشفيات، ويضحك من نكتةٍ فيكررها الجميع في الاجتماعات

والمتملقون يعرفون هذا جيدًا، فيراقبون ما يحبه الكبير ثم يحبونه أكثر منه، ويشترون الحمير البيضاء والبلاد حولهم تحترق

هل تحب ما تحبه حقًّا، أم لأن الكبير يحبه؟

الحمار الذي ظن أن الناس تنحني له

تروي خرافات إيسوب أن مدينةً يونانية أقامت احتفالًا دينيًّا كبيرًا، ووضع فيه تمثالٌ مقدّس على ظهر حمار ليُحمل في موكب إلى المعبد، وخرج الناس جميعًا، فكلما مرّ الحمار بجماعةٍ انحنوا ورموا الزّهور، وركع بعضهم على الأرض

فنظر الحمار حوله ورأى الرؤوس المنحنية فامتلأ صدره، وقال في نفسه: أخيرًا عرف الناس قدري! فتوقف في وسط الطريق، ورفع رأسه ونهق يستقبل التحيات، ورفض أن يكمل السير، فجاء صاحبه بالعصا وضربه على ظهره وقال: يا أحمق، هم ينحنون لما تحمله، فتحرك!

ويعرف هذا الحمار كلُّ من عمل في دائرة حكومية، فهو الموظف الصغير الذي صار مديرًا فنسي أنه وقف يومًا في الطابور، وصار يتأخر عن مواعيده لأن الناس سينتظرونه، ويرفع صوته على المراجعين لأنهم يحتاجون توقيعه، ويتكلم عن نفسه بصيغة الجمع، ثم ينزع عنه المنصب في يومٍ واحد، فيستيقظ في اليوم التالي وهاتفه صامت

والذين انحنوا شركاء في صنعه، لأن الكرسي الذي يُقدَّس يُجلس عليه حمارٌ مغرور، ثم يشكو الناس من غروره، وكل ما يحمله الإنسان مستعار، المنصب والمال والجمال والأضواء، والسعيد من يعرف وهو تحت الزهور أن العصا موجودة، وأن الموكب سينتهي عند باب المعبد

لو نُزع عنك ما تحمله اليوم، فمن سينحني لك، ومن ستكون أمام نفسك؟

الحمار الذي مات عشقًا

كان للشاعر العباسي بشار بن برد حمارٌ يركبه في شوارع البصرة، وبشار وُلد أعمى، فكان الحمار عينيه وقدميه، يعرف الطريق إلى المجالس والأسواق وبيوت الأصدقاء دون أن يدلّه أحد

ثم مات الحمار، فسأله أحد معارفه عنه، فقال بشار بوجه جاد: مات من العشق، فقد رأى أتانًا عند باب الأصبهاني فهام بها، وامتنع عن العلف حتى مات، ثم رأيته في المنام فسألته عما أماته، فأنشدني أبياتًا في محبوبته يقول فيها إنها أسرته ببنانها ودلالها وبخدّ ناعم «مثل خدّ الشيفران»، فقال الرجل: وما الشِيفران يا أبا معاذ؟ فقال بشار: وما يدريني؟ هذا من غريب الحمار، فإذا لقيتَه فاسأله!

روى هذه النادرة أبو الفرج الأصبهاني في كتاب «الأغاني» وتركها بلا تفسير، والحكاية تفسّر نفسها، فهي شعرٌ على لسان حمار، فيه كلمةٌ غريبة لا يعرفها أحد، وسائلٌ يحال في تفسيرها إلى الحمير

ويبدو أن بشارًا كان يسخر من أهل زمنه، فقد كانوا يتنافسون في حفظ الغريب من الألفاظ، ويحكمون على الشاعر بعدد ما في شعره من كلمات نادرة، فجاء شاعرٌ أعمى وصنع لحماره الميت قصيدةً فيها كلمةٌ مخترعة لًا أصل لها، كأنه يقول لهم: هذه هي غرائبكم، فاسألوا عنها الحمير

وللشيفران أحفادٌ في كل مؤتمر، كلماتٌ أجنبية لا حاجة إليها، وعباراتٌ رنانة لا معنى تحتها، يقولها المتكلم ليبدو عالمًا، ويهز السامعون رؤوسهم كأنهم فهموا، لأن أحدًا منهم لا يريد أن يكون أول من يسأل

والحل بسيط ويحتاج إلى شجاعة صغيرة، أن تسأل: ما الشيفران؟ فإما أن تتعلم شيئًا جديدًا، وإما أن يقالَ لك كما قال بشار: اذهب فاسأل الحمار

كم كلمةً قلتها لتبدو عالمًا، وكم سؤالًا لم تسأله خوفًا من أن تبدو جاهلًا؟

الجلود التي تُغلى

في الطب الصيني التقليدي مادةٌ اسمها «إيجياو»، وهي جيلاتين يُستخرج بغلي جلود الحمير أيامًا، ويُباع في قطعٍ داكنة ومساحيق، ويعتقد مستعملوه أنه يقوي الدم ويؤخر الشيخوخة ويحسّن البشرة

وقد عرفت الصين لجلد الحمار استعمالًا أجمل من هذا، ففي شمال البلاد فنٌّ عريق اسمه «مسرح ظل جلد الحمار»، يُدبغ فيه الجلد حتى يصير رقيقًا شفافًا، ويقص منه الفنانون دمى ملونة لأبطال الحكايات، ويحركونها خلف ستارةٍ مضيئة، فتغني الظلال وتتقاتل أمام الناس

وظل الإيجياو قرونًا دواءً للأغنياء وحدهم، ثم اتسعت الطبقة الوسطى في الصين وكثر الطلب عليه، فصارت جلود الحمير تجارةً عالمية، وتقول منظمات رعاية الحيوان إن ملايين الحمير صارت تُذبح كل عام لجلودها وحدها، ولما نقصت الحمير في الصين اتجهت التجارة إلى أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية، فانخفضت أعداد الحمير انخفاضًا كبيرًا في بلدانٍ كثيرة، منها تركيا

وفي قرى أفريقية كثيرة يعتمد الفلاح على حماره في نقل الماء والحطب والمحصول، وفي إيصال المريض إلى المستوصف، فصار اللصوص يسرقون الحمير ليلًا ويذبحونها في الأحراش ويأخذون جلودها ويتركون لحمها، وارتفع ثمن الحمار حتى عجز الفقير عن شراء غيره، فعادت النساء والأطفال يحملون الماء على رؤوسهم، وترك أطفالٌ كثيرون مدارسهم

امرأةٌ في مدينة بعيدة تريد بشرةً أنعم، فيخسر طفلٌ في قرية أفريقية مدرسته، وهذا هو الطريق الذي يقطعه الجلد من الحقل إلى القِدر، وفي

فبراير 2024 أقرّ الاتحاد الأفريقي حظرًا طويل الأمد على ذبح الحمير من أجل جلودها

ولهذا الطريق نسخٌ كثيرة لا تخص الحمير وحدها، فهناك الهاتف الذي استُخرجت معادنه بأيدي أطفال، والقميص الرخيص الذي خيط في مصنعٍ انهار على عماله، والقهوة التي قُطفت بأجرٍ لا يكفي للخبز، ويكفي أن يسأل المرء عن الطريق الذي قطعه ما يشتريه، فالسؤال وحده يغيّر شيئًا، ويقرر في النهاية هل يصير الجلد مسرحًا للحكايات أم يُغلى في القدر

من أين جاء ما تملكه، ومن دفع ثمنه دون أن تراه؟

الحمار الذي يفتح أبواب الحصون

قيل لفيليب المقدوني، والد الإسكندر، إن هناك حصنًا لا يمكن أخذه، فأسواره عاليةٍ وطرقه وعرة وحراسه أشداء، فسأل فيليب سؤالًا واحدًا: هل هو صعب إلى درجة أن حمارًا محمّلًا بالذهب لا يستطيع الصعود إليه؟

نقلٍ هذه الكلمة المؤرخ اليوناني بلوتارخ، ويذكر المؤرخون أن فيليب أخذ مدنًا كثيرة بشراء الخونة من داخلها أكثر مما أخذ بالحصار، لأن الجيش يحتاج إلى أسابيع ليهدم سورًا، والحمار المحمّل بالذهب يحتاج إلى ليلةٍ واحدة وحارسٍ واحد

وتخيّل المشهد كما أراده فيليب، ممرٌّ جبلي ضيق لا تمرّ فيه الجيوش، وحمارٌ وحيد يصعد فيه ببطء وعلى ظهره كيسان ثقيلان، حتى يصل إلى بابٍ صغير في خلف الحصن فيُفتح له، وفي الصباح يستيقظ أهل المدينة فيجدون الأعداء في شوارعهم، ولا يعرفون من أين دخلوا

وهذا الحمار ما زال يعرف طريقه إلى الدائرة التي لا تتحرك فيها ورقة إلا بإكرامية، وإلى لجنة المناقصات التي يفوز فيها من يعرف الباب الخلفي، ويحمل في كل بلدٍ اسمًا لطيفًا، هدية أو قهوة أو تسهيل أو واجب

والحارس الذي يفتح الباب يجد لنفسه الأعذار دائمًا، فمرةً واحدة لن تضر، والجميع يفعلون ذلك، والراتب لا يكفي، ثم يكتشف أن الحمار قد حفظ الطريق وصار يأتي كل ليلة

لم تحمِ الأسوار العالية مدينةً قط من حارسٍ للبيع، ولكل واحد منا بابٌ صغير يحرسه، توقيعٌ أو كلمةٌ أو أمانة، وفي ليلةٍ ما سيسمع حوافر تقترب، وعليه وحده أن يقرر هل يفتح أم لا

عند أي ثمنٍ يُفتح بابك الصغير؟

جحا وابنه وأفواه الطريق

خرج جحا مع ابنه إلى السوق ومعهما حمارٌ واحد، فركب جحا ومشى الولد إلى جانبه، ومرّا بقومٍ جالسين على باب دكان، فقال أحدهم: انظروا إلى هذا الرجل القاسي، يركب مرتاحًا ويترك الطفل يمشي في الحر!

فنزل جحا وأركب ابنه، ومرّا بقومٍ آخرين فقالوا: ولدٌ قوي يركب وأبوه الشيخ يمشي، أين الأدب؟ فركبَ جحا خلف ابنه، فقال الناس: ما أقسى قلوبهما، حملا الحمار فوق طاقته! فنزلا ومشيا والحمار أمامهما بلا حمل، فضحك الناس وقالوا: معهما حمار ويمشيان!

فوقف جحا في وسط الطريق وقال لابنه: أرأيت يا بني؟ لم يبقَ إلا أن نحمل الحمار على أكتافنا

تُروى هذه الحكاية من الأندلس إلى الهند، وكتبها لافونتين شعرًا، وفي بعض رواياتها يحمل الرجل وابنه الحمار فعلًا مربوط القوائم على عصا، فيضحك الناس أكثر، ويتلوى الحمار حتى يسقط في النهر ويغرق، ويعود الرجل إلى بيته بلا حمار بعد أن أرضى كل جماعةٍ في الطريق دقيقةً واحدة

ولكلٍّ منا قومه الجالسون على باب الدكان، فنختار التخصص الذي يرضيهم، ونقيم العرس الذي يليق بنظرهم، ونستدين لنشتري السيارة التي تُسكتهم، وفي بعضِ البيوتِ يصير «كلام الناس» أقوى من القانون ومن مصلحة الأبناء، فتمنع فتاةٌ من الدراسة لأنهم سيتكلمون، وتستدين أسرةٌ فقيرة لتقيم عزاءً يليق بالجيران

والطريف أن الجالسين على باب الدكان يخافون بدورهم من قوم جالسين على دكانٍ آخر، والطريق كله مليءٌ بناسٍ يحملون حميرهم على أكتافهم ويراقب بعضهم بعضا

لمن تعيش حياتك، لنفسك أم للجالسين على باب الدكان؟

ادفعُ أم أطرق؟

في القرن التاسع الميلادي كان شاعرٌ صينيٌ فقير اسمه جيا داو يركب حماره في شوارع العاصمة تشانغآن، وعقله غائبٌ في بيت شعرٍ لم يكتمل، فقد كتب بيتاً يقول فيه: «الراهب يدفع الباب تحت القمر»، ثم تردد، أيهما أجمل، «يدفع» أم «يطرق»؟ ومضى يحرك يده في الهواء كأنه يدفع باباً ثم كأنه يطرقه، ويقلب الكلمتين في رأسه، والحمار يمشي وحده حيث يشاء

ولم ينتبه إلى أن حماره دخل وسط موكبٍ رسمي، هو موكب هان يو، حاكم العاصمة وأحد كبار أدباء عصره، وكان القانون يعاقب من يعترض موكب مسؤول، فأمسكه الحراس وجرّوه هو وحماره إلى الحاكم، فسأله هان يو: لماذا اقتحمت موكبي؟ فاعتذر جيا داو وشرح له حيرته بين الكلمتين

فسكت هان يو طويلًا على صهوة فرسه يفكر في البيت، ثم قال: «يطرق» أجمل، لأن الطرق صوتٌ في الليل الساكن يجعل الصمت مسموعاً، وترك عقوبته، وجعله يسير بجانبه، وتحدثا في الشعر حتى آخر الطريق، وصارا بعد ذلك صديقين، ومن هذه الحكاية دخلت اللغة الصينية كلمةٌ تعني «التنقيح الدقيق»، مركّبةٌ من الفعلين «يدفع» و«يطرق»

حاكمٌ يوقف موكبه ليفكر في كلمة، ويعفو عن شاعرٍ فقير لأجل بيت شعر، ولو اعترض حمارٌ موكبًا رسميًّا في مدينة حديثة لكُتب في المحضر أنه عرقل السير، وصودر الحمار، وانتهت القصة هناك

وفي الحكاية سؤالٌ صغير لكل من يكتب رسالة، أو يرد على أحد، أو يحكم على إنسان: هل أدفع الباب أم أطرقه؟ فالدفع أسرع، أما الطرق فيترك لمن في الداخل أن يفتح بنفسه

هل تدفع أبواب الناس أم تطرقها؟

الحصان الذي رفض أن يحمل

تروي خرافات إيسوب أن رجلًا كان مسافرًا ومعه حصانٌ وحمار، فوضع الأحمال كلها على الحمار، وترك الحصان خفيفًا ليركبه، ومشوا طويلًا تحت الشمس حتى بدأ الحمار يتعثر، فالتفت إلى الحصان وقال: يا أخي، خذ عني بعض الحمل، فأنا أكاد أسقط وأنت مرتاح، فرفع الحصان رأسه وقال: هذا عملك، أما أنا فخُلقت لما هو أرفع

ومشى الحمار قليلًا ثم سقط ومات من الإرهاق، فنقل صاحبه الحمل كله إلى ظهر الحصان، ثم سلخ جلد الحمار ووضعه فوق الحمل ليبيعه في السوق، ومشى الحصان بقية الطريق يحمل كل شيء والجلد فوقه، وهو يقول في نفسه: لو حملت قليلًا لما حملت الآن كل هذا

وفي كل مدينة حصانٌ وحمار، طبقةٌ مرتاحة ترى أن الفقر مشكلة الفقراء، فتعارض الضرائب العادلة ورفع الأجور، وتعيش في أحياء مسوّرة، ويدرس أبناؤها في مدارس خاصة، ويتعالجون في مستشفيات خاصة، فلا يرون شيئًا خارج السور، وطبقةٌ أخرى تحمل كل شيء، تبني البيوت ولا تسكنها، وتزرع الطعام ولا تشبع منه

ثم يسقط الحمار، فينهار التعليم العام فلا يجد المصنع عمالًا يعرفون القراءة، وينهار المستشفى العام فتنتشر الأوبئة التي لا تعرف الأسوار، ويكثر الجوع وتكثر معه السرقة فيعيش الأغنياء خائفين خلف أبوابهم، وعندها يحمل الحصان كل شيء والجلد فوقه

لقد كان إيسوب عبدًا، ولهذا كان يعرف جيدًا كيف يبدو العالم من فوق ظهر الحمار

ما الحمل الصغير الذي رفضتَ أنٍ تحمله اليوم، وسيقع عليك كله غدًا؟

الجالس على الحمار بالمقلوب

في القاهرة ودمشق أيام المماليك كان هناك عقابٌ يخافه الناس أكثر من السجن اسمه «التجريس»، فقد كان المذنب، من شهود الزور أو التجار الغشاشين، يُخرج من السجن ويُسوَّد وجهه أحيانًا، ويُركَّب على حمار بالمقلوب ووجهه إلى ذيله، وتعلق في رقبة الحمار أجراس تقرع، ومنهاً جاءت الكلمة، ثم يُطاف به في الأسواق ومنادٍ أمامه يصيح بذنبه، والصبيان خلفه يرمونه بما في أيديهم

ويذكر مؤرخو مصر في تلك العصور أسماء كثيرين جُرّسوا هكذا، وعرفت بيزنطة وأوروبا القديمة عقوبات تشبهه، يُطاف فيها بالمذنب أو بالأمير المغلوب على حمار مقلوبًا، واختاروا الحمار لأنه في عيون الناس أدنى المراكب، فمن كان يركب الفرس متكبرًا ينزل إلى الحمار، ومن كان ينظر إلى الأمام يجبر على النظر إلى ذيل ما يركب، فيرى ما تركه خلفه ولا يعرف إلى أين يأخذونه

وللتجريس اليوم أدواتٌ أسرع، فقد صار الحمار شاشة الهاتف، والأجراس أصوات الإشعارات، والصبيان آلاف الحسابات التي تشارك وتعلّق وتشتم، فيُنشر مقطعٌ لإنسان أخطأ أو قيل إنه أخطأ، ويُطاف به في أسواق الإنترنت أيامًا قبل أن يعرف أحدٌ ما جرى

والفرق أن تجريس المماليك كان ينتهي مع غروب الشمس، أما التجريس الجديد فيبقى ويلحق صاحبه إلى كل وظيفة يتقدم إليها، وفي الحالتين نادرًا ما يسأل الراكضون خلف الحمار: من اتُّهمه؟ وهل سمع أحدٌ روايته؟ فيكفيهم أن الجرس يقرع وأن الجميع يركضون

لو كنتَ أنت على الحمار بالمقلوب، فمن كنتَ تتمنى أن يسأل عن روايتك؟

أرض الألعاب

في رواية «مغامرات بينوكيو» للإيطالي كارلو كولودي يريد بينوكيو، الدمية الخشبية التي تتكلم، أن يصير ولدًا حقيقيًّا، لكنه يحب اللعب ويكره المدرسة، فيأتيه صديقه بخبرٍ مثير، وهو أن هناك بلدًا اسمه «أرض الألعاب» لا مدارس فيه ولا معلمين ولا كتب، والأسبوع فيه ستة أيام خميس ويوم أحد

فركب الولدان عربةً تجرها أزواجٌ من الحمير، يقودها رجلٌ قصيرٌ سمين وجهه كالتفاحة وكلامه كالعسل، وعاشا في أرض الألعاب خمسة أشهرٍ من المرح، ثم استيقظ بينوكيو ذات صباح فوجد أذنيه قد طالتا، وبعد ساعات نبت له ذيل، وصار يمشي على أربع ويخرج صوته نهيقًا، وحدث لصديقه الشيء نفسه

وعرف بينوكيو السر، فالرجل اللطيف يجمع الأطفال الكسالى ويتركهم يلعبون حتى يصيروا حميرًا، ثم يبيعهم في الأسواق، وقد بيع بينوكيو لسيرك فضُرب وجاع وتعلم الرقص بالسوط، ثم أُصيبت ساقه فباعوه لرجلٍ يريد جلده ليصنع منه طبلة، فربط في رقبته حجرًا ورماه في البحر

كتب كولودي روايته قبل نحو مئة وأربعين عامًا، والرجل اللطيف ما زال يقود عربته إلى اليوم، فهو يجمع الأطفال بألعابٍ إلكترونية صُممت ليبقى الطفل أمامها أطول وقتٍ ممكن لأن وقته يُباع للمعلنين، ويجمعهم بالتسرب من المدرسة إلى الورشة والحقل حيث يصير الطفل عاملًا رخيصًا لا يشكو، ويجمعهم بوعدٍ قديم في ثوبٍ جديد، ثروةٌ بلا تعب وشهرةٌ في ليلة

وكثيرٌ من الأهل يحبون هذا الرجل، فالطفل أمام الشاشة هادئ لا يزعج أحدًا، والطفل في الحقل يعود بأجر صغير يسد حاجة، والأذنان تطولان كل يوم قليلًا، والأهل لا يرونهما لأنهما تطولان ببطء

ما الذي يطيل أذنيك ببطء، فلا تراه لأنه يحدث ببطء؟

سعدي والرجل الذي يعلّم حماره الكلام

في كتاب «كلستان»، أي «حديقة الورد»، الذي كتبه الشاعر الفارسي سعدي الشيرازي في القرن الثالث عشر، حكايةٌ قصيرة عن حكيم رأى رجلًا يجلس أمام حماره ساعاتٍ طويلة يجتهد في تعليمه الكلام، فيكرّر عليه الكلمات ويشير إلى فمه ويرفع صوته ويضربه حين لا يستجيب، والحمار ينظر إليه ويمضغ العشب

فاقترب منه الحكيم وقال: يا هذا، لا تُتعب نفسك فيما لا يكون، فالبهائم لن تتعلم منك النطق، فتعلّم أنت منها الصمت، وفي «كلستان» أيضًا بيتٌ يتداوله الفرس إلى اليوم، معناه أن الحمار لو سافر إلى أشرف البقاع لعاد منها حمارًا

والقول الأول للذين يضيّعون أعمارهم في تغيير من لا يتغير، كالأم التي تحاول عشرين سنة أن تجعل ابنها نسخةً من أخيه، والمدير الذي يريد كل موظفٍ على صورته، فهم يجلسون أمام الحمار ويعلّمونه الكلام ويضربونه حين يسكتً

وفي جواب الحكيم لمسةٌ ساخرة، فالصمت الذي يحاول الرجل أن يكسره هو الفضيلة التي يحتاج إليها الرجل نفسه، فالحمار يحمل ويصبر، ولا يثرثر ولا يغتاب ولا يُفتي في كل قضية، وفي زمنٍ صار فيه كل إنسانٍ معلّقًا على كل خبر صار صمت الحمار شيئًا نادرًا

أما القول الثاني فيعرفه كل من رأى شابًّا يعود من أرقى الجامعات بالعقل نفسه الذي سافر به، ومعه شهادة

من تحاول أن تغيّره منذ سنوات، ومتى تتعلم أنت الصمت؟

خمسمئة أتان في حوض إمبراطورة

ذكر المؤرخ الروماني بليني الأكبر أن بوبّايا سابينا، زوجة الإمبراطور نيرون، كانت تستحم بحليب الأتان، وأنها كانت تصطحب في أسفارها قطيعًا من خمسمئة أتان مرضعة تُحلب كل يوم لتملأ حوضها، لأنها كانت تعتقد أن الحليب يحفظ بشرتها ناعمة بيضاء، ويروي الناس حكاية مشابهة عن كليوباترا لكنها لا تثبت في المصادر القديمة

خمسمئة أتان مرضعة تعني خمسمئة جحشٍ صغير يُحرم من حليب أمه كل صباح، لتغتسل امرأةٌ واحدة

وكان أطباء اليونان قبلها، ومنهم أبقراط، يصفون حليب الأتان دواءً، وظل الأطباء في أوروبا قرونًا يصفونه للرضّع الذين فقدوا أمهاتهم لأنه أقرب إلى حليب الأم، وفي باريس في القرن التاسع عشر كانت الأتن تُقاد إلى مستشفى الأطفال اللقطاء ليرضع منها الصغار مباشرةً، فالحليب واحد، يسكب في القصر في الحوض، وينقذ في المستشفى يتيمًا

وللحليب نفسه صورٌ كثيرة في أيامنا، فالماء الذي يملأ أحواض السباحة في القصور ينقطع عن الأحياء الفقيرة، والكهرباء التي تضيء الأبراج تنطفئ في المخيمات، وثمن عرسٍ واحد يكفي لبناء مدرسة

وبوبّايا على الأرجح لم تفكر يومًا في الجحوش، فمن يعيش في القصر طويلًا يحسب الحوض حقًّا من حقوقه، أما نهايتها فتقول المصادر الرومانية إنها ماتت شابة، وتنسب موتها إلى نيرون نفسه، فلم يحمها الحليب ولا الجمال ولا القصر

ما الحوض الذي تحسبه حقًّا لك، وكم جحشًا يُحرم ليمتلئ؟

الحمار العازف

كتب الشاعر الإسباني توماس دي إيريارتي في القرن الثامن عشر خرافةً قصيرة يحفظها أطفال إسبانيا إلى اليوم، عن حمارٍ كان يرعى في حقلٍ قرب قرية، فوجد بين الأعشاب نايًا نسيه راعٍ صغيرٌ، فاقترب منه وشمّه، ونفخ عليه بأنفه دون قصد، فخرج من الناي صوتٌ عذب

ففرح الحمار ورفع رأسه وقال: ما أجمل عزفي! ومن يقول إن الحمير لا تفهم الموسيقى؟ ثم حاول مرةً أخرى فلم يخرج شيء، وفي الثالثة لم يخرج إلا شخير، لكنه بقي مقتنعًا أنه عازفٌ موهوب لأنه سمع ذلك الصوت مرة واحدة، وختم إيريارتي خرافته ببيتين معناهما أن من يصيب في شيءٍ دون أن يتعلم قواعد الفن، يصيب بالمصادفة

وللحمار العازف تلاميذ كثيرون، رجل الأعمال الذي ربح صفقةً واحدة في سوقٍ صاعدة فكتب كتابًا عن أسرار النجاح، والشاب الذي انتشر له مقطعٌ واحدٌ فصار يحاضر في الإبداع، والمسؤول الذي نجح مشروعٌ في عهده لأسبابٍ لا علاقة له بها فصار يتكلم كأنه صنع المعجزة

والناس يصدقونهم لأنهم يحبون قصص النجاح، ولا يسألون كم مرةً نفخ الحمار في الناي قبلها وبعدها فلم يخرج شيء، وكل من أصاب مرةً يعرف في سرّه نصيب الحظ مما أصاب، أما النفخة الثانية الصادقة فتأتي بعد سنواتٍ من تعلّم الثقوب

كم مما أنجزته كان علمًا، وكم منه كان نفخةً محظوظة؟

الحمار الذي سيتعلم القراءة

يُروى أن تيمورلنك، القائد الذي اجتاح آسيا بالسيف، سمع بجحا وظرفه فاستدعاه، وأشار إلى حمارٍ في الساحة وقال: يقولون إنك عالم، فعلّم هذا الحمار القراءة، فإن نجحتَ أكرمتك، وإن فشلت قطعتُ رأسك، فقال جحا دون تردد: أمرك يا مولاي، لكني أحتاج إلى عشر سنوات ومالٍ لنفقته ونفقتي، فوافق تيمورلنك

وخرج جحا بالحمار والمال، فتجمع حوله أصدقاؤه مذعورين وقالوا: هل جننت؟ كيف ستعلّم حمارًا القراءة؟ فضحك جحا وقال: عشر سنوات مدة طويلة، وفي عشر سنوات إما أن يموت الأمير، أو يموت الحمار، أو أموت أنا

وللحكاية تكملة، فقد عاد جحا بعد مدة ووضع أمام الحمار كتابًا كبيرًا خبأ بين صفحاته حبات الشعير، فصار الحمار يقلب الصفحات بلسانه بحثًا عن الشعير وينهق كلما وجد حبة، فقال جحا: ها هو يقرأ يا مولاي، لكنه يقرأ بلغة الحمير

وسافرت الحكاية مع نصر الدين خوجة من الأناضول إلى آسيا الوسطى حتى وصلت إلى إقليم شينجيانغ في غرب الصين، وهناك يرويها الأويغور عن «أفندي» الذي يسميه الصينيون «أفانتي»، ويركب حمارًا صغيرًا ويسخر من الملوك، وفي روايتهم يطلب الملك من أفانتي أن يعلّم الحمار القراءة فيفعل ما فعله جحا

حكايةٌ واحدة من قونية إلى كاشغر، لأن الطاغية يطلب المستحيل في كل مكان، والمستحيل يريحه لأنه يمنحه حق العقاب متى شاء، فيطلب من الموظف أرقامًا لا تتحقق، ومن المعلم عباقرة في فصلٍ بلا كتب، ومن الصحفي أن يكتب الحقيقة دون أن يغضب أحدًا

والناس يتعلمون حيلة بحا، فيقولون نعم، ويخبئون الشعير بين الصفحات، ويكتبون التقارير التي تقول إن الحمار يقرأ، والطاغية يعرف والجميع يعرفون والحمار يمضغ الشعير، وبهذه الحيلة تنجو الرؤوس، لكن شيئًا آخر يضيع على مهل، فمن عاش طويلًا يقول نعم وهو يعني لا يصعب عليه يومًا أن يعرف ماذا يعني

كم مرةً قلتَ نعم وأنت تعني لا، وهل ما زلت تعرف ماذا تعني؟

الرباعية

كتب الروسي إيفان كريلوف خرافةً أخرى عن الحمار يحفظها الروس كما يحفظون أسماءهم، وفيها أن قردًا مشاغبًا وحمارًا وتيسًا ودبًّا أعرج اجتمعوا وقرروا أن يؤلفوا فرقةً موسيقية رباعية، فوجدوا آلاتٍ ونوتاتٍ، وجلسوا في مرجٍ تحت شجرة زيزفون وبدأوا يعزفون، فخرج منهم صوتٌ مرعب

فقال القرد: توقفوا، المشكلة أننا لا نجلس في الأماكن الصحيحة، أنت يا دب اجلس قبالة الكمان، وأنت يا تيس تعال إلى هنا، فتبدلت المقاعد وبدأوا من جديد والصوت أسوأ، فقال الحمار: عرفتُ السر، يجب أن نجلس في صفٍّ واحدٍ، فهكذا تجلس الفرق الكبيرة، فجلسوا في صفٍّ وعزفوا، فخرج صوتٌ أسوأ من كل ما سبق

وظلوا يتنقلون ويتجادلون حتى مرّ بهم عندليب، فصاحوا به: أنت تفهم الموسيقى، فقل لنا كيف نجلس ليصير عزفنا جميلًا، فقال العندليب: الموسيقى تحتاج إلى أذنٍ تسمع ومعرفةٍ بالفن، أما أنتم يا أصدقائي فمهما جلستم لن تصلحوا للموسيقى

ويقال إن كريلوف كتبها ساخرًا من إعادة تنظيم مجلس الدولة الروسي عام 1810، وصار الروس يقولون «رباعية كريلوف» لكل إصلاحٍ يغيّر المقاعد ويُبقي العازفين أنفسهم، وهذا أحب أنواع الإصلاح إلى الحكومات، فيُعلن عن تعديلٍ وزاري، وينتقل الوزير من الزراعة إلى النقل ومن النقل إلى التعليم، وتُدمج إدارتان وتُقسم ثالثة وتُطبع شعاراتٌ جديدة، والآذان هي هي

ويفعل الأفراد شيئًا قريبًا من ذلك، فيبدّل أحدنا المدينة أو العمل أو الأصدقاء، ثم يكتشف أنه حمل كمانه القديم إلى المقعد الجديد، لأن تبديل

المقعد يحتاج إلى دقيقة، وتعلّم الموسيقى يحتاج إلى سنوات، ولهذا يفضّل أكثر الناس المقاعد

هل غيّرتَ نفسك يومًا، أم غيّرتَ مقعدك فقط؟

حمير مخطّطة

في عام 2009، في قطاع غزة المحاصر، أرادت حديقة حيوان صغيرة اسمها «مرح لاند» أن تفرح الأطفال بحمارٍ وحشي، غير أن الحصارَ يمنع إدخال الحيوانات، وتهريب حمارٍ وحشي عبر الأنفاق من مصر كان سيكلف آلاف الدولارات، فاشترى صاحبُ الحديقة حمارين أبيضين عاديين، وجاء بصبغة شعرٍ نسائية، ورسم بها خطوطًا سوداء على جسديهما بعنايةٍ خطًّا بعد خط، فصارَ عنده حماران وحشيان

وجاء الأطفال بالمئات ووقفوا أمام القفص فرحين، وكثيرٌ منهم لم يرَ حمارًا وحشيًّا إلا في الكتب، وصوّرت وكالات الأنباء المشهد فانتشرت الصور في العالم، يضحك منها الناس ويحزنون في الوقت نفسه

وفي الطرف الآخر من العالم، في مدينة تيخوانا المكسيكية على حدود الولايات المتحدة، عادةً تعود إلى أوائل القرن العشرين، إذ يقف أصحاب الحمير في شارع ريفولوسيون وقد رسموا على حميرهم خطوطًا بيضاء وسوداء، ووضعوا خلفها عربات ملونة وقبعات مكسيكية كبيرة، فيدفع السياح ليتصوروا معها، ويقالُ إن الفكرة بدأت لأن الحمار الرمادي لم يكن يظهر جيدًا في صور الأبيض والأسود، ومع السنين قلّت هذه الحمير حتى صار بعض أصحابها يستعملون حميرًا خشبية

حماران رسم الحصار خطوطهما، وحميرٌ رسم الفقر خطوطها، وفي المكانين يُلبس الحمار ثوب مخلوقٍ آخر لأن الحقيقي بعيد المنال، والحكايتان تقولان شيئًا عن الخطوط التي نرسمها على حياتنا، فنحن نقنع الأطفال أن الحمار المصبوغ حمارٌ وحشي لأننا لا نملك غيره، وتقنع حكوماتٌ شعوبها أن المشاريع المرسومة على الورق إنجازات، وأن الأزمة فرصة

ومع ذلك ففي حكاية غزة جمالٌ لا يُنكر، فهي حكاية رجلٍ محاصر لا يملك شيئًا، أراد أن يرى الأطفال يبتسمون، فصنع لهم من صبغة الشعر وحمارين فرحًا صغيرًا، وهكذا يعيش الناس في الأماكن المظلمة، يرسمون الخطوط ليعيشوا، ومن يضحك من الحمار المخطط يحسن به أن يسأل أولًا عن الحصار الذي أمسك بالفرشاة

ما الخطوط التي رسمتها على حياتك لتحتمل العيش، وهل تتذكر ما تحتها؟

ذهب الحمار، ذهب الحمار

في «المثنوي» لجلال الدين الرومي حكايةٌ عن صوفيّ مسافر وصل في المساء إلى خانقاه يجتمع فيها الصوفية، فربط حماره في الإسطبل، وأوصى الخادم به، ودخل يجلس مع القوم، وكان أهل الخانقاه فقراء جائعين، فباعوا الحمار سرًّا واشتروا بثمنه طعامًا وشموعًا، وأقاموا للضيف وليمة

ففرح الضيف بهذا الكرم وأكل وشرب، ثم بدأ الإنشاد، وفي ذروة الطرب ردد أحدهم لحنًا جديدًا: ذهب الحمار، ذهب الحمار، فردده الجميع وهم يصفقون ويدورون، والضيف لا يعرف ما يقصدون، لكنه رأى الجميع يرددون فردد معهم، وكان أعلاهم صوتًا وأشدهم حماسة

وفي الصباح ذهب إلى الإسطبل فلم يجد حماره، فأمسك بالخادم وسأله: أين حماري؟ فقال الخادم: باعوه أمس، وقد جئتُ مرارًا لأخبرك فوجدتك تنشد معهم «ذهب الحمار» بحماسة، فظننتك تعرف وترضى، وقال الرومي في ختام الحكاية إن التقليد الأعمى هو الذي أضاع على الرجل حماره

ولو كتب الروميّ حكايته اليوم لجعل الخانقاه منصةً على الإنترنت، يطلق فيها أحدهم شعارًا فيردده الملايين قبل أن يقرؤوا ما وراءه، فيغضبون لأنّ الجميع غاضب، ويشتمون من يشتمه الجميع، وفي الشوارع تهتف جموع لقرارات تبيع ثرواتها، ويصفق عمالٌ لقوانين تنقص أجورهم، والحمار الذي يُنشدونَ عنه بحماسة هو حمارهم

وأحزن من في الحكاية هو الخادم، فقد كان الوحيد الذي يعرف، وجاء مرارًا ليخبر فلم يسمعه أحد لأن الطرب كان أعلى، ولكل جماعة خادمٌ مثله، صحفيٌّ يكتب فلا يُقرأ، وعالمٌ يحذّر فلا يُصدَّق، وجارٌ يحاول أن ينبّه فيُسكَت

والجماعة دافئة، والصوت فيها يحمي صاحبه من الوحدة، ولهذا بالضبط يسهل أن يُباع فيها الحمار

ما الذي تردده اليوم مع الجميع، ولا تعرف أن حمارك هو الذي ذهب؟

للملك أذنا حمار

في الأساطير اليونانية التي رواها الشاعر الروماني أوفيد ملكٌ اسمه ميداس، حكم مملكة فريجيا في قلب الأناضول، وقد أُقيمت في زمانه مسابقةٌ موسيقية بين أبولو بقيثارته وبان بنايه الريفي، وحكم بينهما إله الجبل فأعطى الفوز لأبولو، ووافقه الحاضرون جميعاً إلا ميداس، فقد أصرّ على أن ناي بان أجمل

فغضب أبولو وقال: الأذنان اللتان لا تميزان الجمال لا تستحقان أن تكونا أذني إنسان، وفي لحظة طالت أذنا ميداس وكساهما شعرٌ رمادي حتى صارتا أذني حمار، فأخفاهما الملك تحت عمامة أرجوانية كبيرة لا يخلعها أبدًا، ولم يعرف السر إلا حلاقه، فأمره بالكتمان وهدده بالقتل

وحمل الحلاق السر حتى كاد يختنق، فخرج إلى الحقل وحفر حفرة، وأدنى فمه منها وهمس: للملك ميداس أذنا حمار، ثم ردمها وعاد مرتاحًا، وفي الربيع نبت فوق الحفرة قصبٌ كثيف، فكلما مرت الريح بين القصب همس بالكلمات نفسها، حتى عرفها الناس جميعًا

لقد كان أمام ميداس طريقان، أن يعترف بخطئه ويتعلم الاستماع، أو أن يلبس العمامة ويهدد الحلاق، فاختار ما يختاره أكثر الحكام، والطريق الثاني سهلٌ في أوله، ثم يأتي الربيع

وللحقيقة قصبها في كل عصر، رسالةٌ مسرّبة، وصورةٌ من هاتف، وشاهدٌ خرج من السجن، ونكتةٌ تمشي في المقاهي، وحين يصير الهمس في الحفر هو الحرية الوحيدة في بلدٍ ما يصير القصب صحافته

ولكلٍّ منا عمامته الصغيرة، خطأٌ نخفيه، أو ظلمٌ أوقعناه بأحد، فنخاف من كل من يقترب منه، والعمامة ثقيلة، والحلاق متعب، والربيع يأتي كل سنة

ما العمامة التي تخفي تحتها خطأك، وماذا ستفعل حين يأتي الربيع؟

الأمير الذي نهق في الجنازة

في الصين، في القرن الثالث الميلادي، عاش شاعرٌ اسمه وانغ تسان، أحد «أدباء جيانٍ آن السبعة» الذين ازدهر بهم الشعر الصيني في ذلك العصر، وكان له ولعٌ غريب، فقد كان يحب صوت نهيق الحمار ويجد فيه ما يطربه

ومات وانغ تسان في الأربعين من عمره، فحضر جنازته تساو بي، ابن تساو تساو، الذي صار بعد ذلك أول أباطرة مملكة وي، ووقف أمام القبر ونظر إلى الحاضرين من الأدباء والوزراء والقادة وقال: كان صاحبنا يحب نهيق الحمير، فلينهق كلٌّ منكم نهقةً واحدة نودّعه بها، ثم رفع تساو بي رأسه ونهق، ونهق بعده الوزراء والشعراء والقادة واحدًا بعد واحد، حتى امتلأت المقبرة بنهيقٍ حزين يودّع به الكبار صديقهم

تحفظ هذه الحكاية مجموعةٌ صينية شهيرة اسمها «حكايات جديدة من أحاديث العالم»، وفيها أمراء ووزراء ينهقون فوق قبر، فيضحك القارئ أولًا، ثم ينتبه إلى ما فعله الأمير، فقد ترك الهيبة، وترك الخطب التي يكتبها الموظفون، وتذكّر الشيء الصغير الذي كان يحبه صديقه، وفعله له أمام الجميع

وفي مآتمنا يحدث العكس غالبًا، فعبارات التعزية نفسها في كل بيت، والتنافس على عدد الكراسي وفخامة الطعام، ونادرًا ما يقف أحدٌ ليقول: كان صاحبنا يحب هذه الأغنية فلنسمعها

والحب يعرف التفاصيل الصغيرة، يعرف كم ملعقة سكر تضع أمك في الشاي، والنكتة التي تضحك صديقك، والسؤال الذي يحب أبوك أن يُسأل عنه، والذين نفقدهم يبقون أحياءً عند من عرف هذه الأشياء، ولهذا بقي نهيق تساو بي يُروى أكثر من ألف وثمانمئة عام

ما الشيء الصغير الذي يحبه أقرب الناس إليك، وهل ستتذكره حين يرحل؟

الحمار الذي تعلّم ألا يأكل

قال جحا لنفسه يومًا: هذا الحمار يأكل كثيرًا والشعير غال، ولو علّمته أن يأكل أقل لوفّرت مالًا كثيرًا، فأنقص من شعيره في اليوم الأول قبضةً فاستمر الحمار في العمل، وأنقص في اليوم الثاني قبضتين فحمل الحمار ومشى، وظل كل يومٍ ينقص شيئًا والحمار يعمل

ففرح جحا وصار يحكي لجيرانه: انظروا إلى حماري، يعملٍ كما كان ويأكل نصف ما كان يأكل، وبعد أسابيع سيتعلم ألا يأكل أبدًا، ونقص الشعير حتى صار حبات معدودة ثم لا شيء، وفي الصباح التالي وجد جحا حماره ميتًا في الإسطبلً، فجلس بجانبه حزينًا وضرب كفًّا بكف وقال: يا للخسارة! مات في اليوم الذي تعلّم فيه أن يعيش بلا أكل

وهذه أصدق نكتة كُتبت عن سوق العمل، فصاحب العمل ينقص الراتب قليلًا فيستمرً العامل، ويزيد الساعات ساعةً فيستمر، ويلغي الإجازة ويؤخر الأجر ويحمّله عمل اثنين فيستمر، فيستنتج أن طريقته ناجحة ويحكيها لزملائه في المؤتمرات، والعامل يدفع الفرق من صحته ونومه وأعصابه وأولاده حتى يسقط دفعةً واحدة، بمرضٍ مزمن أو بحادث عمل

وفي الحقول الموسمية يعمل آلاف الناس تحت الشمس بأجرٍ لا يكفي، ومعهم أطفالٌ مكانهم المدرسة، ويرى صاحب الأرض المحصول يُجمع في وقته فيظن أن كل شيءٍ بخير، ودولٌ كاملة تفاخر بانخفاض أجورها لتجذب المستثمرين، كأنها جحا يحكي لجيرانه

والحمار لا يعرف كيف يقول: كفى، أما العامل فيعرفها ويخاف أن يقولها، وبين الخوف والجوع ينقص الشعير حبةً بعد حبة

كم حبةً بقيت في شعيرك قبل أن تقول كفى؟

قلب الحمار وأذناه

في «كليلة ودمنة»، الكتاب الذي ترجمه ابن المقفع إلى العربية في القرن الثامن الميلادي، حكايةٌ عن أسدٍ مرض حتى عجز عن الصيد، وكان ابن آوى يعيش من فضلاته فجاع بجوعه، فقال الأسد: زعم الطبيب أن دوائي في قلب حمارٍ وأذنيه

فذهب ابن آوى يبحث حتى وجد حمارًا يرعى قرب عين ماء وصاحبه قصّارٌ يغسل الثياب، فسأله عن حاله فشكا الحمار من التعب والجوع، فوصف له ابن آوى مرعًى أخضر بعيدًا عن الأحمال فيه عشبٌ لا ينتهي وحميرٌ تعيش في راحة، حتى تبعه، فلما اقترب من الأسد وثب عليه، لكن الأسد كان ضعيفًا فأفلت الحمار وهرب مذعورًا إلى صاحبه

وعاد إليه ابن آوى في اليوم التالي، فقال له الحمار: ما هذا الذي جررتني إليه؟ فقال ابن آوى: ذاك واحدٌ من أهل المرعى أراد أن يرحّب بك فخفت وهربت، ولو ثبتّ لأكرمك، فارجع معي، فصدقه الحمار مرةً ثانية ورجع، فقتله الأسد

ثم ذهب الأسد ليغتسل قبل أن يأكل، فأكل ابن آوى القلب والأذنين، فلما عاد الأسد وسأل عنهما قال ابن آوى: لو كان لهذا الحمار قلبٌ يعقل به وأذنان يسمع بهما لما رجع إليك بعد أن نجا منك

وقد كتب ابن المقفع كتابه في زمنٍ كان قول الحقيقة فيه للسلطان يكلّف الرأس، وقُتل هو نفسه قتلةً شنيعةً، فجعل حكمته على ألسنة الحيوانات، والحمار في حكايته ذهب إلى الأسد متعبًا جائعًا يجره وعدٌ بمرعًى أخضر، وهكذا يُقاد المتعبون في كل زمان، يتعب الناس من الفقر والظلم فيأتيهم من يعدهم بالمرعى فيتبعونه، ثم ينكشف الفخ فيهربون، ثم يعود ابن آوى

نفسه بوجهٍ لطيف وكلامٍ جديد ويقول إن ما رأوه كان سوء فهم، فيرجعون

أن يُخدع الإنسان مرةً فهذا يحدث لأذكى الناس، أما الرجعة الثانية إلى الفخ نفسه فهي التي أكلت القلب والأذنين

ما الفخ الذي نجوتَ منه مرة، ثم عدتَ إليه لأن الصوت كان لطيفًا؟

العمدتان اللذان نهقا في الغابة

في الجزء الثاني من «دون كيخوته» يحكي ثربانتس على لسان إحدى شخصياته حكايةً عن قريةٍ إسبانية صغيرة ضاع فيها حمار أحد أعضاء مجلسها، وبعد أسبوعين أخبره عضوٌ آخر أنه رأى الحمار في الغابة القريبة، فخرجا معًا يبحثان عنه

وبحثا طويلًا فلم يجداه، فقال الثاني: عندي فكرة، أنا أجيد تقليد النهيق وأنت كذلك، فلننهق كلٌّ من جهة، فإذا سمعنا الحمار ظن أن حمارًا آخر يناديه فأجاب، ففعلا، فنهق الأول فسمعه الثاني وظنه الحمار فركض نحوه فوجد صاحبه، ثم نهق الثاني فركض الأول فوجد صاحبه، وتكرر ذلك حتى اتفقا على علامة، نهقتان متتاليتان، ليعرف كلٌّ منهما أن الآخر هو الناهق

ودارا حول الغابة كلها ينهقان والحمار لا يجيب، حتى وجداه في النهاية ميتًا قد أكلته الذئاب منذ أيام، فقال صاحب الحمار: لا بأس، فقد عوّضني عن خسارته أنني سمعتُ نهيقك، وهو أجمل نهيقٍ سمعته في حياتي، فقال الآخر: والله ما أنت بأقلٍ مني فيه، وعادا إلى القريةً مبحوحين، وحكيا للناس كل شيء، وصار كلٌّ منهما يمدح نهيق صاحبه

ثم انتشرت الحكاية في القرى المجاورة، فصار أهلها ينهقون في وجه كل من يرونه من قرية العمدتين، وصار الأطفال ينهقون، وتحولت السخرية إلى شجارات والشجارات إلى عداوة، حتى يجد دون كيخوته في فصلٍ لاحق أهل القرية وقد اشتروا الرماح والسيوف وخرجوا لقتال جيرانهم، في حربٍ بين قريتين سببها حمارٌ ميت ونهيق أعجب أصحابه

ويعرف كل من عمل في مؤسسة هذين العمدتين، يخرجان للبحث عن شيءٍ ضائع فيعودان بلا شيء، ومعهما تقريرٌ طويل يمتدح جهود الفريق، ويعرف كل من عاش في منطقة متوترة كيف تبدأ العداوات الكبيرة بنكتة ثم تنتهي حيث لا يضحكُ أحد

كم مرةً خرجتَ تبحث عن شيءٍ ضائع، فعدتَ تمدح نهيقك؟

الرسم الساخر على جدار روما

في عام 1857 كان علماء الآثار يحفرون في تل البالاتين بروما، فدخلوا غرفة قديمة يُرجّح أنها كانت مدرسة لخدم القصر الإمبراطوري، ووجدوا على جدارها رسمًا محفورًا بخطوط خشنة يعود إلى نحو القرن الثالث الميلادي، يُظهر شابًّا رافعًا يده بالتحية أمام شخصٍ مصلوب له جسد إنسان ورأس حمار، وتحته كتابةٌ يونانية ركيكة معناها: «ألكساميnوس يعبد إلهه»

وكان ألكساميnوس على الأرجح خادمًا مسيحيًّا من أقلية مضطهدة في روما الوثنية، فأراد زميلٌ له أن يسخر من دينه فرسم إلهه برأس حمار، وكانت تهمة «عبادة الحمار» شائعة عند الرومان يرمون بها اليهود والمسيحيين، ووجد العلماء في غرفة مجاورة نقشًا آخر يقرؤه بعضهم: «ألكساميnوس مؤمن»، كأن الشاب ردّ على السخرية بكلمتين

وهذا الرسم من أقدم صور السخرية المسجّلة من أقلية دينية، والطريقة فيه قديمة جديدة، فحين تريد الأكثرية أن تحتقر أقلية تصنع لها صورة مضحكة، وتنسب إليها عادات غريبة، وتختصرها في نكتة، وتختار الحمار غالبًا لأنه في عيونها أحقر المخلوقات

وما أكثر النكات من هذا النوع، نكاتٌ عن أهل منطقة بأنهم أغبياء، وعن قوم بأنهم بخلاء، وعن اللاجئين والعمال الأجانب، تبدو مزاحًا عابرًا، وهي في التاريخ أول الطريق، فقبل أن يُطرد الناس من بيوتهم يرسمون على الجدران

ومرت القرون وانهارت روما الوثنية، وصار دين ألكساميnوس دين الإمبراطورية نفسها، وبقي الرسم في المتحف يشهد على من رسمه

من الذي ترسمه في رأسك برأس حمار، وهل عرفته حقًّا؟

سيارات الأجرة في القاهرة القديمة

قبل الترام والسيارات كان من يريد أن يتنقل في شوارع القاهرة يستأجر حمارًا، وقد وصف الرحالة الأوروبيون في القرن التاسع عشر، ومنهم المستشرق الإنجليزي إدوارد لين، مشهد الحمير المستأجرة، يقف أصحابها عند الأبواب والميادين وعلى ظهورها سروج ملونة، فيركب الزبون ويجري صاحب الحمار خلفه حافيًا ويصيح بالناس في الزحام ليفسحوا الطريق: ظهرك! رجلك! شمالك!

وكان «الحمّارة»، كما يسميهم الناس، يعرفون المدينة كما يعرفها سائق التاكسي اليوم، وكثير منهم صبيان يطعمون أسرهم من الأجرة الزهيدة، وكان السياح الأجانب يحبون ركوب الحمير إلى الأهرامات والقلعة، ويقال إن بعض الحمارة سمّوا حميرهم بأسماء مشاهير أوروبيين ليجذبوا الزبائن

ثم جاء الترام ثم السيارات، فاختفى الحمّارة من شوارع القاهرة، ولم يسأل أحد أين ذهبوا، وكل تقنية جديدة تمحو مهنًا، فالسيارة محت الحمّار، والمطبعة محت النسّاخ، والمصنع محا الحرفي، والبرامج الذكية تمحو اليوم مهنًا لم يتوقع أصحابها أن تُمحى

والترام أسرع من الحمار ولا جدال في ذلك، لكن السؤال الذي يتهرب منه الجميع يتعلق بالصبي الحافي: هل تعلّم مهنة جديدة، أم صار يتسول في الشوارع التي كان يعرف كل زقاق فيها؟ ولو سألنا عنه في وقته لوفّرنا على أنفسنا سؤالًا أصعب بعد سنوات: من أين جاء كل هؤلاء الغاضبين؟

حين يصل الترام إلى حياتك، فماذا سيبقى منك؟

الحمار الذي نصح الثور

في أول «ألف ليلة وليلة»، حين قررت شهرزاد أن تتزوج الملك الذي يقتل زوجاته، حاول أبوها الوزير أن يثنيها عن ذلك، فحكى لها حكاية الحمار والثور، وفيها أن تاجرًا ثريًّا كان يفهم لغة الحيوانات بشرط أن يكتم السر، فإن أفشاه مات، وكان في إسطبله ثور وحمار، فسمع الثور يشكو إلى الحمار: أنت مرتاح، تأكل الشعير النظيف ولا يركبك صاحبنا إلا قليلًا، وأنا أحرث من الفجر إلى الليل وأضرب بالعصي

فقال الحمار: عندي لك حيلة، إذا جاؤوا بالعلف غدًا فلا تأكل، وإذا أرادوا أن يأخذوك إلى المحراث فارقد على الأرض كأنك مريض فيتركونك، ففعل الثور ذلك، وكان التاجر قد سمع كل شيء، فقال لخادمه: خذ الحمار مكانه واحرث به

وعاد الحمار في المساء مكسور الظهر، وجلس يفكر في الورطة التي صنعها بلسانه، ثم جاءه الثور يشكره، فقال له الحمار: سمعت صاحبنا يقول إن الثور إذا بقي مريضًا فسيذبحه ويوزع لحمه، ففزع الثور وقام في الصباح يأكل علفه بشراهة ويقفز نشيطًا، وضحك التاجر حتى استلقى على ظهره

وتُروى الحكاية درسًا في النصيحة التي ترتد على صاحبها، وفيها ذلك فعلًا، فالحمار تطوع بالحكمة في شأن غيره فحمل الحمل الذي أراد أن يرفعه، لكن العين تقع في الحكاية على شخصٍ ثالث، فالثور حسد الحمار على شعيره، والحمار تذاكى على الثور ثم كذب عليه ليخلّص نفسه، والتاجر الذي يملك الإسطبل والعلف والعصا يسمع كل شيء ويضحك

وفي مجتمعات كثيرة يحسد العامل العامِل على امتياز صغير، ويتذاكى الموظف علىً زميله ليسبقه إلى ترقية، ويتهم اللاجئ بأنه سرق عمل ابن البلد، ويتشاجر الجميع في الإسطبل، والتاجر يضحك حتى يستلقي على ظهره

من الذي يضحك في إسطبلك وأنت تتشاجر مع من يشبهك؟

يركب حماره ويبحث عنه

اشترى بجا عشرة حمير، فركب واحدًا منها وساق التسعة الباقية أمامه نحو قريته، وفي منتصف الطريق التفت ليتأكد أن حميره كلها معه، فعدّها: واحد، اثنان، ثلاثة، حتى بلغ تسعة، فإذا هي تسعة فقط! ففزع ونزل يبحث في الطريق يمينًا ويسارًا، ثم عدّها وهو واقف فكانت عشرة، فحمد الله وركب، وبعد قليل عدّها من فوق الحمار فكانت تسعة، ونزل فكانت عشرة فكّ بجا رأسه طويلًا ثم قال: فهمت، إذا مشيتُ ربحتُ حمارًا، وإذا ركبتُ خسرتُ حمارًا، فالمشي أفضل، وأكمل الطريق ماشيًا خلف حميره العشرة، وهو لا يدري أن الحمار الذي كان ينساه في العدّ هو الحمار الذي يركبه

وفي اللغة الصينية مثلٌ يقول: «يركب الحمار ويبحث عن الحمار»، يقال لمن يفتش عن شيءٍ هو جالس عليه، ويُحكى في تفسيره أن فلاحًا خرج يبحث عن حماره الضائع في القرى وهو راكب عليه، وسأل كل من لقيه، حتى ضحك منه طفلٌ وقال: يا عم، وما هذا الذي تركبه؟

حكايتان من طرفي آسيا تضحكان من العيب نفسه، وعلى هذا العيب تقوم صناعة الإعلان كلها، فهي تُقنعك أن هاتفك ناقص وسيارتك ناقصة وبيتك ناقص وجسدك ناقص، فتعدّ ما عندك فتجده تسعة، وتنزل إلى المتجر تبحث عن العاشر، فتشتري وتركب ثم تعدّ من جديد

والحمار الذي تحتك، صحتك ووقتك وأهلك، يحملك كل يوم، ولهذا بالضبط لا تعدّه، ويملك الناس اليوم أكثر مما ملكه أي جيلٍ قبلهم، ويشكون النقص أكثر من أي جيل، فانظر قبل أن تبحث عن حمارك الضائع إلى ما تحتك

ما الذي تجلس عليه كل يوم، وتبحث عنه في مكانٍ آخر؟

أدراج سانتوريني

في جزيرة سانتوريني اليونانية، البلدة البيضاء المعلقة فوق جرف بركاني، طريق حجري متعرج فيه مئات الدرجات يصعد من الميناء القديم إلى أعلى البلدة، وكانت الحمير والبغال منذ زمنٍ بعيد تحمل الناس والبضائع على هذا الطريق، ثم صارت الجزيرة من أشهر مقاصد السياحة في العالم، يصل إليها ملايين الزوار كل عام بالسفن العملاقة

ووجد السياح في ركوب الحمار صعوداً تجربةً طريفة يصورونها وينشرونها، فصارت الحمير تصعد وتنزل من الصباح حتى الغروب تحت شمس الصيف، تحمل سائحًا بعد سائح، وكثير منهم أثقل مما ينبغي، حتى نشرت منظمات رعاية الحيوان صوراً مؤلمة لظهور جريحة وأجساد منهكة وأفواه عطشى، وفي عام 2018 أصدرت الحكومة اليونانية قواعد تمنع أن يُحمّل الحيوان أكثر من مئة كيلوغرام أو أكثر من خمس وزنه، وتلزم أصحابه بالظل والماء والراحة

وفي مدينة البتراء الأثرية في الأردن تتكرر الحكاية نفسها، فآلاف الزوار يركبون الحمير والبغال على الأدراج الصخرية المؤدية إلى «الدير»، والحيوانات تصعد وتنزل في الحر طوال النهار، حتى تدخلت الجمعيات والسلطات لتنظيم عملها وإقامة عياداتٍ لعلاجها

لقد جاء السائح ليرى الجمال، فرأى تجربةً طريفة، ولم ينظر إلى ما تحته، وتفعل السياحة الكثيفة شيئاً يشبه هذا بمدن كاملة، فيأتي الزوار بالملايين وترتفع الإيجارات حتى يعجز أهل المدينة عن السكن فيها، وتصير البيوت فنادق، والأسواق القديمة محلات تذكارات، والسكان خدماً في مدينتهم،

ويعود السائح إلى بلده بصورٍ جميلة، ويبقى خلفه أهلٌ متعبون يصعدون الدرج كل يوم بحملٍ أثقل

والنادل الذي يحمل الصحون، والسائق الذي يقود بك، والعاملة التي ترتب غرفتك، كلهم جزءٌ من الحياة التي جئت لتراها، مثل البحر والجرف والبيوت البيضاء، فانظر إليهم كما تنظر إلى المنظر

حين تنظر إلى المنظر الجميل، هل ترى من يحملك إليه؟

أيُّ فرقٍ عندي؟

من خرافات إيسوب كما رواها الشاعر الروماني فيدروس حكايةٌ قصيرة عن راعٍ عجوز كان يرعى حماره في مرجٍ أخضر، فسمع فجأة صيحات جيش العدو يقترب ليغزو البلاد، ففزع وأمسك بحبل الحمار وقال: أسرع، اهرب معي قبل أن يأسرونا

فبقي الحمار في مكانه، ورفع رأسه وسأل بهدوء: وإذا أسرني العدو، هل سيضع على ظهري حملين؟ فقال الراعي: لا أظن، فقال الحمار: إذن ما الفرق عندي أن أكون لك أو لهم؟ سأحمل حملي في كل الأحوال، ثم عاد يأكل العشب، وكتب لافونتين هذه الخرافة بعد ذلك بقرون وختمها ببيتٍ معناه: عدوّنا هو سيدنا

وقلّما قيل في السياسة كلامٌ أجرأ من جواب هذا الحمار، فهو يطرح على السلطة سؤالًا تكره سماعه: ماذا أعطيتني حتى أهرب معك؟ والحاكم الذي يطلب من شعبه أن يموت دفاعًا عن البلد يحسن به أن يسأل نفسه أولًا: هل وجد الفقير في هذا البلد خبزه، والمريض دواءه، والطفل مدرسته، والمظلوم قاضيه؟ أم كان الناس يحملون أثقالهم كل يوم ويُضربون عليها، ثم يُطلب منهم في ساعة الخطر أن يحموا من يضربهم؟

وفي التاريخ مدنٌ فتحت أبوابها للغزاة بلا قتال، وجيوشٌ انهارت في ساعات، لأن سكانها كانوا يفكرون كما فكر حمار الراعي، والسؤال نفسه يصح في البيت والمكتب، فالأب الذي يطلب الوفاء من ابنه، والمدير الذي يطلبه من موظفيه، يحصدان في ساعة الضيق ما زرعاه في أيام الرخاء

ماذا أعطيتَ من تطلب منهم الوفاء حتى يهربوا معك؟

جنديٌّ يفتّش أوراق حمار

في عام 2007 زار فنان الشارع البريطاني المجهول المعروف باسمٍ بانكسي مدينة بيت لحم في الضفة الغربية، ورسم على أحد جدرانها لوحةً صارت من أشهر أعماله، فيها جنديٌّ مدجج بالسلاح بخوذته وسترته الواقية وبندقيته، يقف أمام حمارٍ عادي ويطلب منه أوراقه الثبوتية، والحمار واقفٌ بصبر كأنه ينتظر أن ينتهي التفتيش ليكمل طريقه

وضحك منها كثيرون، لأن المشهد يقولُ في لحظة واحدة ما تقوله التقارير في صفحات، فحين يُطلب من الحمير أن تبرز أوراقَها يكون العقل قد غادر الحاجز منذ زمن

لكن الحكاية لم تنتهِ عند الجدار، فبعض أهل المدينة غضبوا لأنهم رأوا في الحمار إشارةً إليهم، وبعد سنوات قُطع الجزء الذي يحمل اللوحة من الجدار، ونُقل إلى أوروبا ثم إلى أمريكا، وعُرض في مزادٍ فني بتقديرات تبلغ مئات آلاف الدولارات، وصنع عن قصةٍ قطعه وبيعه فيلمٌ وثائقي، وهكذا صارت لوحةٌ رُسمت لتسخر من الظلم سلعةً في صالات العرض، وصار الحمار الذي كان يقف صابرًا على جدار بيت لحم يقف أمام أثرياء يحملون كؤوسهم

وفي الحكاية سخريتان، الأولى من كل نظامٍ يفتش كل شيء ولا يرى أحدًا، يطلب الورقة نفسها عشر مرات ويوقف سيارة الإسعاف ليسأل عن رخصتها، والثانية من عالمٍ تعلّم أن يبيع وجع الناس، فصور الحروب تفوز بالجوائز، وقصص اللاجئين تصير أفلامًا، ويربح من الصورة كثيرون، والحمار ما زال واقفًا عند الحاجز

هل تعرف وجع الناس منهم، أم من الصور المعروضة عنه؟

الحمار الذي أراد أن يغني تحت القمر

في «البنجاتنترا»، الكتاب الهندي القديم الذي خرجت منه «كليلة ودمنة»، حكايةٌ عن حمارٍ كان يعمل في النهار عند غسّال، يحمل الثياب المبلولة من النهر إلى البيوت، ويترك في الليل حرًّا، فتعرّف على ابن آوى وصارا صديقين، وكانا يتسللان كل ليلة إلى حقل خيارٍ كبير فيأكلان حتى يشبعا ويعودان قبل الفجر

وفي ليلة مقمرة شبع الحمار وشعر بسعادة غامرة، فقال لصاحبه: يا ابن أختي، الليل جميل والقمر بديع وقلبي فرحان، وسأغني، ففزع ابن آوى وقال: يا عم، نحن لصوصٌ في حقلٍ ليس لنا، والغناء سيوقظ الحارس، ثم إن صوتك مع احترامي لا يطرب أحدًا، فغضب الحمار وقال: أنت ابن الغابة ولا تفهم في الموسيقى، وصوتي جميل وأنا أعرف المقامات، وسأغني

فقال ابن آوى: إذن انتظرني حتى أخرج من الحقل، ثم غنِّ ما شئت، وخرج ووقف عند السياج، ورفع الحمار رأسه وأطلق نهيقه الطويل في سكون الليل، فاستيقظ الحارس وجاء بعصاه وضرب الحمار حتى سقط، وعلّق في رقبته قطعةً ثقيلة من الخشب وتركه يجرها في الحقل، وفي الصباح مرّ به ابن آوى وقال: هذه جائزة غنائك يا عم

حكايةٌ هندية عمرها أكثر من ألفي عامٍ تصلح لكل غرفة اجتماعات، ففيها دائمًا من يغني في المكان الخطأ، موظفٌ يتفاخر بصفقةٍ لم توقّع بعد، فتطير، وشابٌّ ينشر على الإنترنت ما كان يجب أن يبقى في بيته، ومسؤولٌ يقول أمام الكاميرات ما كان يجب أن يبقى في الغرف المغلقة

والفرح حقٌّ لصاحبه والغناء جميل، لكن الحمار نسي تفصيلًا صغيرًا، وهو أن الحقل ليس له، فجرّ قطعة الخشب في رقبته حتى الصباح

متى غنّيتَ في حقلٍ ليس لك، ومن دفع ثمن غنائك؟

الراكبان بالمقلوب

دُعي جحا ليعظ الناس في قرية مجاورة، فركب حماره وخلفه طلابه يمشون، فرأى الناس في الطريق منظراً عجيباً، جحا يجلس على الحمار مقلوباً ووجهه إلى الذيل، فضحكوا منه، وسأله أحد طلابه بحرج: يا شيخ، الناس يسخرون منا

فقال جحا: لو ركبتُ كما يركب الناس لكان ظهري إليكم، وهذا قلة أدبٍ مع طلابي، ولو مشيتم أمامي لكانت ظهوركم إليّ، وهذا قلة أدبٍ مع شيخكم، فوجدت أن أفضل حلٍ أن أركب هكذا، فأرى وجوهكم وترون وجهي

وفي الصين حكيمٌ آخر يركب حماره بالمقلوب اسمه تشانغ قوو لاو، أحد «الخالدين الثمانية» في الأساطير الصينية، يرسمه الفنانون منذ قرون شيخاً عجوزاً على حمارٍ أبيض ووجهه إلى الخلف، وتقول الحكايات إن حماره كان يقطع آلاف الأميال في اليوم، فإذا وصل طواه تشانغ كورقة ووضعه في صندوق، ثم نفخ عليه الماء في الصباح فعاد حماراً، وحين يُسأل عن ركوبه المقلوب تقول الرواية الشعبية إنه أجاب بما معناه: الناس يركضون إلى الأمام ولا يرون ما تركوه وراءهم، وأنا أمضي إلى الأمام وعيني على الطريق الذي قطعته

حكيمان من طرفي آسيا لم يلتقيا قط اختارا الجلسة نفسها، وضحك منهما الناس بالطريقة نفسها، والناس يضحكون دائمًا من الجديد قبل أن يسألوا عنه، فالشاب الذي يترك الوظيفة ليبدأ مشروعه يقال عنه مجنون، والفتاة التي تختار تخصصاً غريباً يُسخر منها، والمعلم الذي يغيّر طريقة التدريس يُتهم

بالفوضى، ثم يصير ما ضحكوا منه بعد عشرين سنة هو المألوف، ولا يعتذر أحد

أما سؤال تشانغ قوو لاو فيناسب زمننا أكثر من زمنه، فنحن نركض إلى الأمام بسرعةٍ لم يعرفها البشر من قبل، ولا نلتفت إلى ما تركناه في الطريق، أهلٍ نسيناهم وأخطاءٍ لم نتعلم منها

هل تلتفت يومًا إلى الطريق الذي قطعته، أم تركض فقط؟

حزبٌ للحمير

في عام 1963، في إيران، أسس الإخوة توفيق، أصحاب مجلة ساخرة شهيرة، حزبًا سياسيًا سموه «حزب الحمير»، وكانت الحياة السياسية يومئذ أشبه بالمسرح، فيها حزبان رسميان أنشأتهما السلطة ولا يصدقهما أحد، فجاء حزب الحمير يسخر منهما، وفي الفارسية تعني كلمة «خر»، أي الحمار، الأحمق أيضا

وكانت للحزب قواعد طريفة، فأعضاؤه يحملون بطاقات خضراء ويعقدون الاجتماعات، وعلى كل من يريد الانضمام أن يقدّم للّجنة الحزب دليلًا على حماقة ارتكبها في حياته، وكان السياسيون ورجال البلاط ممنوعين من الانضمام، ومن شعاراته: «يا حمير إيران والعالم، اتحدوا»، و«لنصنع مناخا ينهق فيه كل حمارٍ بحرية»، ويقال إن الحزب جذب أعضاءً أكثر من الحزبين الرسميين

وبعد عقود، في كردستان العراق، تأسس حزبٌ آخر للحمير وحصل على ترخيص رسمي عام 2005، وقال أمينه العام إن الحمار كان «الصديق الوحيد للمقاتلين في جبال كردستان»، يحمل لهم السلاح والطعام والجرحى حين لا يصلهم أحد، وفي عام 2012 نصب الحزب في وسط مدينة السليمانية تمثالًا من البرونز لرأس حمار يرتدي بدلة رسمية وربطة عنق، وقال إن للتمثال أكثر من معنى، وإنه يأمل أن يدفع الناس إلى معاملة الحمير برفقٍ أكبر

حزبان بينهما أربعون عامًا وحدودٌ واحدة اختارا الحمار، والضحك هنا جاد، فحين تصير السياسة الرسمية مسرحًا لا يصدقه أحد يلجأ الناس إلى السخرية

ليقولوا ما لا يُقال، وحين يُطلب من المواطن أن يمنح ولاءه لأحزابٍ مصنوعة يمنحه لحمار ويضحك

وتمثال السليمانية سؤالٌ واقفٌ في الشارع، حمارٌ في بدلة رسمية، فهل هو حمارٌ صار سياسيًّا، أم سياسيٌّ كشفت البدلة حقيقته، أم إنه الحمار الذي حمل المقاتلين في الجبال ثم نسيه الجميع حين وصلوا إلى المكاتب، فألبسوه البدلة ليتذكروه؟

لمن تمنح ولاءك، ولماذا؟

الحمار الذي مات بين حزمتين

في أوروبا العصور الوسطى اشتهرت أحجيةٌ فلسفية اسمها «حمار بوريدان»، نسبةً إلى الفيلسوف الفرنسي جان بوريدان، وقد ناقش أبو حامد الغزالي قبله بقرون فكرةً قريبة منها في صورة رجلٍ جائع أمامه تمرتان متساويتان

وتقول الأحجية: ضع حمارًا جائعًا بين حزمتين متساويتين من التبن في الحجم والرائحة والمسافة، فلا شيء يرجّح إحداهما على الأخرى، فإذا كان الحمار لا يتحرك إلا بسببٍ يرجح، فسيبقى واقفًا ينظر إلى هذه ثم إلى تلك حتى يموت جوعًا بين طعامين، والحمار الحقيقي سيأكل من أيٍّ منهما دون تفكير، أما الإنسان فيموت فعلًا بين حزمتين

يموت الشاب بين تخصصين وهو ينتظر أن يعرف أيهما أفضل حتى تمر السنوات، وتموت العلاقة بين خيارين لأن صاحبها ينتظر يقينًا لن يأتي، ويموت المشروع في الدرج، وتموت الرواية في المسودة الأولى

وتموت بلدانٌ بين حزمتين أيضًا، فتتردد عشرين عامًا بين إصلاحين، وتشكّل لجنةً بعد لجنة، ثم تجد نفسها في مكانها وقد سبقها الجميع، وللإدارات العامة في بلادٍ كثيرة عبارةٌ سحرية لهذا الموت هي «يُحال إلى الدراسة»، ثلاث كلماتٍ تعني أن الحمار سيبقى واقفًا بين الحزمتين إلى الأبد

والتردد يلبس ثياب الحكمة، وكثيرًا ما يكون خوفًا من المسؤولية، لأن من لم يختر لا يُحاسب على اختياره، لكن الحزمتين تجفّان مع الوقت، والقرار الناقص يمكن إصلاحه في الغد، أما الجوع فلا ينتظر

ما القرار الذي تقف أمامه منذ زمن، وكم بقي من التبن قبل أن يجفّ؟

الشاب الذي صار حمارًا

في القرن الثاني الميلادي كتب أبوليوس، الأديب المولود في مداوروش بالجزائر اليوم، روايةً تعدّ من أقدم الروايات الكاملة التي وصلتنا، اسمها «التحولات»، ويعرفها الناس باسم «الحمار الذهبي»، وبطلها شابٌّ فضولي اسمه لوكيوس مولعٌ بالسحر، نزل في بيت امرأةٍ يقال إنها ساحرة، ورآها تدهن جسدها بمرهمٍ فتتحول إلى بومة وتطير، فأقنع خادمتها أن تأتيه بالمرهم ليجرب

لكن الخادمة أخطأت العلبة، فدهن لوكيوس جسده وانتظر الأجنحة، فنبت له شعرٌ كثيف، وطالت أذناه، واستطال وجهه، حتى صار حمارًا، وبقي عقله عقل إنسان، يفهم كل ما يدور حوله ولا يستطيع الكلام، وكان علاجه أن يأكل وردًا، لكن اللصوص هجموا على البيت وسرقوه قبل أن يصل إلى الورد

وتمضي الرواية ولوكيوس يُباع من صاحبٍ إلى صاحب، فيحمل أسلاب اللصوص في الجبال، ويدير الرحى عند طحان، ويُضرب عند بستاني، ويُسخَّر عند كهنة متجولين، ويرى من داخل جلد الحمار ما لم يره وهو إنسان، لأن الناسَ لا يتجمّلون أمام حمار، فيرى السيدة المحترمة تخون زوجها، والكاهن يسرق أتباعه، والجندي يسلب الفلاح، والعبيد في الطاحونة بأجسادٍ مجروحة ووجوهٍ يغطيها الطحين، أي إنه يرى روما من أسفلها

وفي النهاية يأكل الورد من يد الكاهن في موكبٍ ديني فيعود إنسانًا، لكنه يعود إنسانًا آخر غير الذي كان

والمسؤول الذي يركب السيارة المكيفة لا يعرف حرارة الطريق، والمدير الذي لم يعمل يوماً في أسفل السلم لا يعرف كيف يعامل من فيه، والغني الذي لم يقف في طابور المساعدات لا يعرف طعم الانتظار، ولو أُجبر كل صاحب سلطة على أسبوعٍ واحد في جلد الحمار لعاد بقوانين مختلفة، وهذا ما يستطيعه أبوليوس وما يستطيعه كل كاتب، أن يضع القارئ في الجلد ويتركه يمشي

لو عشتَ أسبوعًا في جلد أضعف من تعرف، فبأي عينٍ ستعود؟

موسيقيو بريمن

في حكايات الأخوين غريم الألمانية حمارٌ عجوز عمل سنوات طويلة عند طحان يحمل أكياس القمح إلى الطاحونة، فلما شاخ وضعف قرر صاحبه أن يتخلص منه ليوفّر علفه، ففهم الحمار ما يدبّر له وهرب، وقرر أن يذهب إلى مدينة بريمن ليصير موسيقيًّا في فرقتها، لأن صوته قوي وسيجد عملًا

وفي الطريق لقي كلب صيد عجوزًا يلهث، طرده صاحبه لأنه لم يعد يصيد، ثم لقي قطًّا عجوزًا أرادت صاحبته أن تغرقه لأنه لم يعد يصطاد الفئران، ثم ديكًا يصيح بكل قوته لأنه سمع أن أصحابه سيذبحونه للضيوف غدًا، فدعاهم الحمار جميعًا وقال: تعالوا معي إلى بريمن، ففي كل مكانٍ نجد ما هو أفضل من الموت

وفي الليل وصلوا إلى بيتٍ في الغابة فيه لصوصٌ يأكلون ويشربون، فوقف الحمار عند النافذة، وصعد الكلب على ظهره، والقط على ظهر الكلب، والديك على رأس القط، وأطلقوا أصواتهم دفعةً واحدة، نهيقًا ونباحًا ومواءً وصياحًا، ففر اللصوص إلى الغابة ظانين أن وحشًا هجم عليهم، ودخل الأصدقاء الأربعة البيت وأكلوا، وأعجبهم المكان فبقوا فيه، ولم يصلوا إلى بريمن أبدًا

إنها حكايةٌ للأطفال تبدأ بحقيقة يعرفها الكبار جيدًا، فهؤلاء أربعة مخلوقات عملت طوال عمرها، فلما كبرتْ قرر أصحابها قتلها لأنها لم تعد تنتج، وفي مجتمعاتٍ كثيرة يُسرَّح العامل قبل التقاعد بسنة ليوفّر أصحاب العمل معاشه، ويُترك الأب في دار رعايةٍ لا يزوره فيها أحد، وتصير الأم التي حملت البيت ثلاثين عامًا عبئًا على المائدة، وحين يُقاس الإنسان بإنتاجه وحده يكتشف الجميع متأخرين أنهم سيكبرون أيضًا

لكن الحكاية تنتهي بفرح، فأربعة عجائز مطرودين صنعوا معًا صوتًا أفزع اللصوص، وبيتًا لا يطردهم منه أحد، ولعل هذا أجمل ما في حكايات الأطفال، أنها تترك للعجائز بابًا مفتوحًا

حين تكبر ولا تعود تنتج، فمن سيفتح لك الباب؟

الكُنغا

في شمال شرق سوريا، قرب الحسكة، تلٌّ أثري كبير اسمه تل براك، كان قبل أكثر من أربعة آلاف عام مدينة عظيمة اسمها ناغار، وفي الألواح المسمارية من تلك الحقبة يتكرر ذكر حيوان اسمه «الكُنغا»، يُشترى بأضعاف ثمنٍ الحمار، ويجر عربات الملوك في الحروب والمواكب، وكانت ناغار مشهورة بتربيته وبيعه للممالك المجاورة

وظل العلماء زمنًا طويلًا يسألون عن حقيقة هذا الحيوان، حتى نشر فريقٌ من الباحثين في عام 2022 دراسة حللوا فيها المادة الوراثية لهياكل حيوانات دُفنت بعناية في مقبرة ملكية قرب تل براك، فجاء الجواب أن الكنغا هجينٌ من أتانٍ أليفة وحمارٍ بري سوري

وكان الحمار البري السوري صغيرًا سريعًا شرسًا يعيش في بادية الشام ولا يُروَّض، فكان أهل ناغار يصطادون ذكوره ويزاوجونها بالأتن الأليفة، فيولد الكنغا وفيه سرعة البري وقوته وصبر الأليف وطاعته، وهكذا صنع أهل سوريا القديمة أول حيوانٍ هجينٍ معروف في التاريخ، قبل البغل بقرون

أما الحمار البري السوري نفسه، ذلك الجد الشرس، فقد انقرض في القرن العشرين، أهلكه الصيد والحروب، ومات آخر من عُرف منه في حديقة حيوان بفيينا في عشرينيات القرن الماضي، وفي صحارى القرن الأفريقي ما زال يعيش الحمار البري الأفريقي، جد حمير العالم كلها، وهو اليوم مهدد بالانقراض بدرجةٍ حرجة، ولم يبقَ منه في البرية إلا أعدادٌ قليلة جدًّا

حمير العالم الأليفة بالملايين وأجدادها يختفون، والأرض التي صنعت أول هجين في التاريخ فقدت الحمار الذي صُنع منه، وهكذا تضيع أشياء كثيرة في البلاد التي عرفت الحروب، فتهدم المدن القديمة وتقوم مكانها أبراج

متشابهة، وتموت الحرف مع آخر الحرفيين، وتُنهب المواقع الأثرية وتُباع في مزادات بعيدة، ونظنّ أن الجذور باقية لأن الفروع في كل مكان، حتى نبحث عن الأصل يوماً فلا نجده إلا في حديقة حيوانٍ في فيينا أو في متحف

ما الأصل الذي فقدته وأنت تظنه باقيًا في الفروع؟

روثيو، حمار سانشو

في رواية «دون كيخوته» يركب الفارس المجنون حصانه الهزيل روثينانتي، ويركب تابعه الفلاح الطيب سانشو بانثا حماره الرمادي، ودون كيخوته يرى الطواحين عمالقة والفنادق قصورًا والخادمات أميرات، وسانشو يرى الأشياء كما هي، ومع ذلك يتبعه، لأنه وعده بجزيرة يحكمها، ولأنه أحبه شيئًا فشيئًا، وكان الحمار رفيق سانشو الحقيقي، يكلمه في الطريق ويشكو إليه همومه وينام بجانبه في البرد

وفي جبال سييرا مورينا سرق لصٌّ اسمه خينيس الحمار ليلًا وسانشو نائم، فاستيقظ سانشو ولم يجد حماره، فبكى بكاءً مرًّا ورثاه كما يُرثى الأحبة: يا ابن أحشائي، يا رفيق أيامي، يا سبب رزقي وراحة قلبي، وبعد فصول طويلة رأى سانشو اللص يركب حماره في الطريق، فصرخ به حتى فر وترك الحمار، فركض سانشو إليه واحتضنه وقبّله وكلمه كأنه صديق عاد من الموت، والحمار واقف ساكنًا يتلقى القبلات

وفي الجزء الثاني من الرواية يصير سانشو حاكمًا على «جزيرة» عشرة أيام في مزحة دبّرها له دوق ثري، فيحكم بين الناس بعدل وفطنة أدهشا من حوله، ثم يتعب من الحكم والمؤامرات فيترك المنصب، ويذهب إلى الإسطبل ويحتضن حماره، ويقول له إنه كان أسعد حين كان يرعاه ويطعمه، وإن الحكم لم يجلب له إلا الجوع والهم، ثم يركبه ويرحل

فارسٌ يحلم بالمجد ويحارب الطواحين، وفلاحٌ أمّي يعرف قيمة حماره ويعرف متى يترك الكرسي، والقرّاء منذ أربعة قرون يضحكون من سانشو، ثم يكتشفون في آخر الرواية أنه أعقل من فيها

وفي السياسة دون كيخوتات كثيرون، يعدون أتباعهم بجزرٍ لن يحكموها، ويقودونهم من معركةٍ خاسرة إلى أخرى، وكثيرٌ من السانشوات يتبعونهم ويدفعون الثمن من ظهورهم، ولو سأل أحدٌ سانشو عن رأيه لقال إن الطاحونة طاحونة، لكن أحدًا لا يسأل الفلاحين

هل تعرف متى تترك الكرسي، ومن الذي ستعود إليه حين تتركه؟

موديستين

في خريف عام 1878 قرر الكاتب الاسكتلندي روبرت لويس ستيفنسون، الذي سيكتب بعد سنوات رواية «جزيرة الكنز»، أن يقطع جبال السيفين في جنوب فرنسا ماشيا، واشترى لحمل أمتعته أتانًا صغيرة سماها موديستين، ثم كتب عن رحلته كتابًا عنوانه «رحلاتٌ مع حمار في السيفين»، يحكي فيه بصراحةٍ موجعة كيف بدأت العلاقة بينهما

كانت موديستين بطيئة تمشي على هواها وتتوقف عند كل عشبة، وكان ستيفنسون مستعجلًا لا يعرف شيئًا عن الحمير، فصار يضربها بالعصا ليسرعها حتى تعب ذراعه، ثم علّمه فلاحٌ أن يستعمل منخسا مدببا، فصار ينخسها في ظهرها حتى جرحها، وكان يغضب منها ويشتمها ويكتب عنها بسخرية

ومضت الأيام في الجبال، ونام ستيفنسون في العراء تحت النجوم، وأكل معها ومشى معها، فبدأ يرى صبرها وطيبتها، وصار يكلمها ويقلق عليها إذا تعبت، ويطعمها الخبز الأسود من يده، وبعد اثني عشر يوما وصل إلى نهاية الرحلة فباعها وركب العربة ليغادر، وفي العربة وهو يبتعد أدرك أنه فقد صديقًا، فبكى، وكتب في آخر كتابه أنه لم يعرف قيمتها إلا بعد أن فارقها، وأنه بكى عليها دون أن يخجل

وما زال طريق ستيفنسون مسارًا يمشيه الناس في فرنسا إلى اليوم، ويستأجر بعضهم أتانًا تمشي معهم، كأنهم يعتذرون لموديستين

كاتبٌ كبير يعترف أنه ضرب من حمله، ولم يعرف قيمته إلا عند الفراق، وهذا الاعتراف أندر من الذنب نفسه، وفي البيوت كثيرٌ من موديستين، زوجةٌ يستعجلها زوجها كل يوم ويضيق ببطئها، ثم يكتشف بعد رحيلها أنها

كانت تحمل البيت، وأمٌّ يتأفف أبناؤها من تكرار أسئلتها، ثم يبكونها في العربة، والقسوة في أكثر هذه الحكايات تأتي من العجلة والاعتياد أكثر مما تأتي من الشر

ومنخس ستيفنسون ما زال في أيدٍ كثيرة، وأصحابه يحسبونه عصًا عادية لتسريع الطريق

من الذي تستعجله اليوم، وستبكيه غدًا في العربة؟

الرجل والحمار في غاليبولي

في الخامس والعشرين من أبريل عام 1915 نزل الجنود الأستراليون والنيوزيلنديون على شاطئٍ صغير في شبه جزيرة غاليبولي في معركة جناقٍ قلعة، وكان القتال شرسًا منذ اللحظة الأولى، والتلال حول الشاطئ مليئة بالجرحى

وكان بين الجنود شابٌّ اسمه جون سيمبسون كيركباتريك يعمل حاملًا للنقالات في وحدة إسعاف، فوجد بين الصخور حمارًا تائهًا من الحمير التي جيء بها للنقل، فخطرت له فكرة، وصار يقود الحمار صعودًا في الوادي الضيق إلى حيث يسقط الجرحى، فيضع الجريح على ظهره وينزل به إلى الشاطئ حيث نقطة الإسعاف ثم يعود، من الفجر حتى الليل، تحت الرصاص والقذائف، ويداه خاليتان من السلاح، وتقول الروايات إنه استعمل أكثر من حمار خلال تلك الأسابيع، وإن جنودًا كثيرين نجوا بفضله

وفي صباح التاسع عشر من مايو 1915، بعد نحو ثلاثة أسابيع ونصف من النزول، أُصابته رصاصة في الطريق فمات، وصار سيمبسون وحماره رمزًا في أستراليا، تُقام لهما التماثيل وتُروى قصتهما للأطفال

وفي تلك المعركة مات عشرات الآلاف من الطرفين، أتراكٌ يدافعون عن أرضهم، وشبابٌ جاؤوا من أقاصي الأرض ليموتوا في بلادٍ لم يسمعوا باسمها قبل الحرب، والقرارات التي أرسلتهم كُتبت في مكاتبَ بعيدة، كتبها رجالٌ لم يقفوا يومًا في وادٍ يتساقط فيه الرصاص، وبين هؤلاء وأولئك رجلٌ وحمار اختارا أن يحمِّلا الأحياء

فالحرب يصنعها الكبار في المكاتب، ويدفع ثمنها الصغار في الوديان، وينقذ ما يمكن إنقاذه بسطاءُ لا يملكون إلا ظهورهم، وفي حروب قريبة منا رأينا أمثال سيمبسون، مسعفين ومتطوعين يركضون بين الأنقاض، ويدفعون عربات الحمير المحمّلة بالمصابين حين نفد وقود سيارات الإسعاف

ولا يتذكر أحدٌ اليوم من كتب أوامر ذلك الصباح، أما الرجل والحمار فلهما تمثال

إن لم تملك إلا ظهرك، فماذا ستحمل عليه؟

بلاتيرو

في عام 1914 نشر الشاعر الإسباني خوان رامون خيمينيث كتابًا صغيرًا عنوانه «بلاتيرو وأنا»، صار من أشهر كتب الأدب الإسباني، ونال صاحبه بعد ذلك جائزة نوبل، وبلاتيرو فيه حمارٌ صغير فضي اللون، ناعم كأنه من القطن، وعيناه سوداوان لامعتان كحبتين من الكهرمان الأسود

والكتاب أكثر من مئة نصٍّ قصير يمشي فيها الشاعر مع حماره في قرية موغير جنوب إسبانيا، ويحدثه عن كل ما يرى، عن الأطفال الفقراء الذين يلعبون في التراب، وعن الفتاة المريضة التي ماتت، وعن المجنون الذي يرميه الصبيان بالحجارة، وعن الكلب الأجرب الذي قتله الحارس ببندقيته، وعن القسوة الصغيرة التي يمارسها أهل القرية كل يوم دون أن ينتبهوا لها، وبلاتيرو يسمع ولا يجيب، والشاعر يبوح له بما لا يبوح به للناس

وفي آخر الكتاب يموت بلاتيرو، فيجده الشاعر ميتًا في الإسطبل، ويدفنه تحت شجرة صنوبر في الحقل، ويعود لزيارة قبره ويكلمه كأنه يسمعه، وقد كتب خيمينيث في تقديمه أنه لم يكتب الكتاب للأطفال، وأنه حين اختير لهم تركه كما هو، لم يحذف منه فاصلة ولم يزد

شاعرٌ لم يجد في قريته من يسمعه كما يسمعه حمارٌ، وما أكثر من يعيشون هذا اليوم في مدنٍ مزدحمة، أسرٌ تجلس معًا وكلٌّ منها في هاتفه، وشبابٌ يكتبون أوجاعهم لغرباء على الإنترنت، وكبارٌ يكلمون التلفاز لأن أحدًا لا يكلمهم

والإصغاء أصعب مما يبدو، فهو أن تسمع أحدًا حتى آخر كلامه دون أن تقاطعه أو تنصحه أو تحكم عليه، وهذا كل ما فعله بلاتيرو، وصار بسببه أشهر حمارٍ في الأدب الإسباني

متى أصغيتَ آخر مرةٍ لأحدٍ حتى آخر كلامه؟

إيور وعيد ميلاده

في كتب «ويني الدبدوب» للإنجليزي آلان ألكسندر ميلن، التي صدر أولها عام 1926، حمارٌ رمادي عجوز اسمه إيور، حزين دائمًا، يعيش وحده في ركنٍ رطب من الغابة، ويتوقع الأسوأ في كل شيء، وقد ضاع ذيله مرة فأعاده إليه كريستوفر روبن بمسمار، وإذا سأله أحدٌ عن حاله قال بصوتٍ منخفض إن الأمور لا بأس بها، وإن أحدًا لا يهتم على كل حال

ووجده ويني يومًا أحزن من عادته فسأله عن السبب، فقال إيور إن اليوم عيد ميلاده ولم يتذكره أحد، فأسرع ويني إلى بيته ليأتيه بهدية وأخذ جرّة عسل، لكنه جاع في الطريق فأكل العسل كله حتى صارت الجرة فارغة، وأسرع صديقه الخنزير الصغير يحمل بالونًا أحمر، فتعثر وسقط عليه، فانفجر البالون وصار قطعة مطاطٍ صغيرة مبللة، ووصل الصديقان إلى إيور بهديتين خائبتين

ثم حدث شيءٌ عجيب، فقد أخذ إيور البالون المنفجر ووضعه داخل الجرة ثم أخرجه، ثم وضعه ثم أخرجه، وصاح بفرحٍ لم يعهد منه: يدخل! ويخرج! وظل يلعب بهما سعيدًا، والجرة في رأيه الآن أنفع جرّة في الغابة، فقد كانت الهديتان ناقصتين، لكنهما جاءتا من صديقين تذكّراه، وهذا ما كان ينقصه

وفي كل حيّ إيور، الجار العجوز الذي لا يطرق بابه أحد، والأرملة التي تقضي العيدَ وحدها، والشاب الذي يقول إنه بخير، والمغترب الذي لا يتذكر أحدٌ عيد ميلاده، ونمرّ بهم ونقول: هذا طبعه، يحب العزلة، ونمضي، وكثيرٌ من الحزن يذوب بزيارةٍ واحدة، ولو جاء الزائر بجرّةٍ فارغة

من الذي ينتظر زيارتك ولو بجرّةٍ فارغة، ولماذا تؤجلها؟

حمار الحكيم

اختار الكاتب المصري توفيق الحكيم الحمار رفيقًا في أكثر من كتاب، فكتب رواية «حمار الحكيم» عام 1940، ثم كتاب «حماري قال لي»، وفي «حمار الحكيم» يشتري الكاتب جحشًا صغيرًا من رجلٍ في الشارع بثمنٍ زهيد، ويأخذه معه إلى فندقٍ فاخر في القاهرة فيثير دهشة الخدم والنُزلاء، ثم يرافقه إلى الريف مع فريقٍ يصور فيلمًا عن الفلاحين، ومن خلال الجحش يرى الكاتب المسافة بين أهل المدينة الذين يصنعون الأفلام عن الريف، وأهل الريف الذين يعيشون فيه بلا ماءٍ نظيف ولا علاج، ويموت الجحش في الريف

وفي «حماري قال لي» يجلس الكاتب ويحاور حماره في السياسة والمجتمع والثقافة، والحمار يجيب بسخريةٍ حادة، ويقول ما لا يجرؤ الكاتب على قوله باسمه

وهذه حيلةٌ قديمة، فابن المقفع جعل الحكمة على ألسنة الحيوانات في «كليلة ودمنة»، وإيسوب كان عبداً فانتقد البشر بالخرافات، وأورويل كتب عن الخنازير ليتكلم عن الطغاة، فإذا غضب صاحب السلطة قال الكاتب: إنما هو حمارٌ يتكلم

واختار الحكيم الحمار تحديدًا لأن الناس يحتقرونه، فإذا قال حكمةً نجلوا، وإذا انتقد عيباً فيهم عرفوا أن عيبهم ظاهرٌ حتى إن الحمار يراه، وهذا الكتاب الذي بين يديك سار على الطريق نفسه، وحمّل الحمير ما يثقل على الناس أن يسمعوه من الناس

ويبقى في حكاية الحكيم سؤالٌ لم يجب عنه أحد: لماذا يحتاج الكاتب في بلادنا إلى حمارٍ ليقول رأيه؟

ما الذي تريد أن تقوله منذ زمن، ولا تجرؤ عليه إلا على لسان حمار؟

بالتازار

في عام 1966 أخرج المخرج الفرنسي روبير بريسون فيلمًا عنوانه «بالتازار بالمصادفة»، بطله حمارٌ اسمه بالتازار، يولد في مزرعة فرنسية صغيرة ويحبه الأطفال، وتمنحه اسمه فتاةٌ صغيرة تدعى ماري، ثم يكبر وتبدأ رحلته من يدٍ إلى يد

فهو يعمل في الحقول ويُضرب، ويُباع لخبّاز يستعمله في توزيع الخبز، فيعذبه شابٌّ قاسٍ من القرية ويربط بذيله ورقةً مشتعلة ليضحك، ثم يهرب إلى سيرك فيُعرض للفرجة، ثم يقتنيه رجلٌ سكير، ثم يُستعمل في تهريب البضائع عبر الجبال

وفي كل مرحلةٍ يرى بالتازار ما يفعله البشر، يرى ماري تكبر وتتألم، والشاب القاسي يؤذيها، والكبار يخذلونها واحدًا بعد واحد، وأباها يخسر أرضه بكبريائه، وبالتازار يمشي صامتًا ويحتمل، حتى تصيبه في النهاية رصاصةٌ في الجبل أثناء عملية تهريب، فيمشي جريحًا إلى مرعى مليء بالأغنام، ويرقد بينها وأجراسها تقرع حوله، ويموت بهدوء

ويعدّ كثيرٌ من النقاد هذا الفيلم من أعظم ما صُنع في السينما، ورأوا في بالتازار صورة البريء الذي يحمل آثام العالم ولا يشارك فيها، والفيلم يكتفي بأن يجعلنا ننظر في عيني الحمار طويلًا بلا موعظة

وفي كل مدينةٍ من يمشي من يدٍ إلى يد مثل بالتازار، الطفل اليتيم الذي يتنقل بين بيوت الأقارب ويُستعمل في الخدمة، والعاملة الأجنبية التي صودرت أوراقها، والطفل الذي يُدفع إلى التسول عند الإشارات، يرون كل شيء ويحفظون في صمتهم طريقة معاملتنا لهم

كيف سيتذكرنا من مرّوا بأيدينا صامتين؟

بنيامين العجوز

في رواية «مزرعة الحيوان» لجورج أورويل تثور حيوانات المزرعة على صاحبها البشري وتطرده، وتعلن أن كل الحيوانات متساوية، وبين هذه الحيوانات حمار عجوز اسمه بنيامين، أكبرها سنًّا وأكثرها تشاؤمًا، لا يضحك أبدًا، ويقرأ كما يقرأ أي خنزير لكنه لا يستعمل هذه الموهبة، ويرى كل شيء

رأى الخنازير تستولي على السلطة شيئًا فشيئًا، ورآها تغيّر القوانين المكتوبة على جدار الحظيرة ليلًا، وتنام في سرير صاحب المزرعة وتشرب خمره، وتمشي في النهاية على قائمتين، وكان يعرف تمامًا ما يجري، ومع ذلك كان يسكت، وإذا سئل عن رأيه قال إن الحمير تعيش طويلًا، وإن أحدًا لم ير حمارًا ميتًا، يعني أنه سيبقى بعد الجميع، فلا حاجة به إلى الكلام

وكان صديقه الوحيد الحصان بوكسر، حصانٌ قوي طيب يعمل أكثر من الجميع ويصدّق كل ما تقوله الخنازير، وكلما وقعت مشكلة قال: سأعمل أكثر، حتى انهار من التعب، فجاءت عربةٌ لتأخذه والخنازير تقول إنها ستنقله إلى المستشفى، فقرأ بنيامين ما كُتب على جانب العربة: «ذابح خيول وصانع غراء»

ولأول مرة في الرواية ركض بنيامين بكل قوته، وصرخ في الحيوانات أن تنقذ صديقه، فركضت الحيوانات خلف العربة، لكن العربة كانت قد ابتعدت

وبنيامين هو المثقف الذي يعرفه كل مجتمع، يقرأ ويفهم ثم يختار الصمت، ويقول إن الكلام لا ينفع، وإن الأنظمة كلها متشابهة، وإنه سيعيش بعد الجميع، ويجلس في مقهاه ساخرًا من كل شيء ولا يكتب حرفًا، ثم تأتي

العربة يومًا لمن يحب، فيكتشف وهو يركض خلفها أن صمته الطويل كان شراكة

وبوكسر أيضًا وجهٌ مألوف، فهو العامل الطيب الذي يحل كل أزمة بأن يعمل أكثر حتى يُباع، وبين صمت بنيامين وطيبة بوكسر أخذت الخنازير المزرعة كلها

ما الذي تراه وتسكت عنه، ومتى يصير صمتك شراكة؟

خاتمة

هذه حكاياتٌ جمعتُها من التاريخ والأدب والحكايات الشعبية، من مصر القديمة إلى الصين، ومن نوادر جحا إلى مزرعة أورويل، وفي كل واحدةٍ منها كان الحمار يحمل ويصبر، وكان البشر من حوله يكشفون عن أنفسهم

وغايتي من الكتاب بسيطة، أن يخرج القارئ من كل حكاية بعبرةٍ أو حكمة، كما كنت أخرج من حكايات جدتي، وأن يجد بين يديه كتابًا مختلفًا عما اعتاد أن يقرأ

فإن وجدتَ نفسك في حكاية أو حكايتين فقد وصلت الرسالة، وإن لم تجد نفسك في أيٍّ منها فاقرأ الكتاب مرةً ثانية، على مهل، كما يمشي حمار